الفكر الماركسي
في
ميزان الإسلام

عرض * تحليل * نقد

الأستاذ الدكتور
محمد رشاد عبد العزيز دهمش
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدسوق - سابقًا

الطبعة الثانية
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن هـــذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا)

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

صدق الله العظيم

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا »

وبعـــد

فما أشبه الليلة بالبارحة - إن التاريخ ليعيـــد نفسه - ففي أيام العصور الوسطى عند ماعجز أعداء الاسلام أن يواجهوه في ميدان الحرب والطعان ، أو ينالوا منه بقوة السيف والرمح والسنان ، لجأوا - في حقد وخسة ودناءة - إلى أباطيلهم يقدمونها في سحر البيان وسلاطة اللسان وقوة البرهان ، آملين عن طريق الغزو الفكري أن يحققوا ما عجزوا عنه عندما وقفوا أمام المسلمين وجها لوجه .

فأخذت - آنذاك - رياح الشكوك وعواصف الفتن تهب على المسلمين تحمل أفكار أعدائهم وآرائهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ، تهدف - فيما تهدف - إلى القضاء على الاسلام ، أو على الأقل في تشكيك الناس في عقيدتهم السماوية وزعزعة شجرتها الوارفة ، واضعاف جذورها الثابتة ، آملين ألا تستمر هذه الشجرة المباركة صامدة في قوة وثبات في مهاب العاصفة الفكرية العاتية التي تهب عليها من كل مكان .

فلقد عز على أعداء الاسلام - حينئذ - أن يروا ملكهم وسلطانهم في يد العرب المسلمين ، هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة إزدراء واحتقار .

فإذا بهم - بفضل دينهم الحق الجديد - يأخذون العرش ويعطون التاج ويتربعون على الذروة من المجد وكتاب الله تعالى ملء القلوب والصدور يهديهم إلى سواء السبيل

واليوم تهب على المسلمين - بين الحين والحين - تيارات فكرية ومذاهب هدامة وآراء ضالة، وأفكار منحرفة وأقوال مسمومة، تتجه - تحت راية العلم والمشاهدة والتجربة - إلى عقيدة المسلمين وأفكارهم وتراثهم وتقاليدهم للقضاء عليها أو لاضعافها والتشكيك فيها، حتى يمكن عن طريق هذا الغزو الفكرى الجديد المسلح بالعلم التجريبي - الاستيلاء على تلك الأماكن التى تشتمل على تلك النعم وهذه الخيرات التى أودعها الله تعالى فى بلاد الاسلام.

إن العالم الاسلامى هدف ثمين من أهداف الغزو الفكرى الأجنبى نظراً إلى موقعه وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة

إن الاسلام اليوم يمر بفترة قاسية إذ تهب عليه من الشرق والغرب معاً تيارات الحادية، ومذاهب مادية، وأفكار هدامة، وتعاليم باطلة، ومبادىء فاجرة، وقد ظهرت نظريات كثيرة من العصور الأخيرة تتحدى صلاحية الاسلام باسم العلم الحديث والفلسفة الجديدة إنها تدعى أن تصورات الله والدين محض خديعة، ولا حقيقة وراءها.

إن هذا التحدى ليس بصراخ مجنون، بل يوجد على شكل فكر خطير أثر فى الفكر المعاصر تأثيراً جعل العلوم الحديثة تتأثر به بدرجة أو بأخرى.

إن جميع الفلسفات التى نادى بها مفكروا العصر الحديث تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد بغض النظر عن البديل المقترح.

فمنها من يقترح ألوهية المادة، ومنها من ينادى بألوهية الإنسان، ومنها

من يجعل الغريزة محور تفسـير الوجود ومن المعروف أن الدين الوحيد الذى صفت منه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك إنما هو الاسلام .

ولعل أخطر هذه الفلسفات المادية قاطبة إنما هى الفلسفة الماركسية تلك التى تنكر وجود الآله والرسل وكل القيم الروحية والتعاليم الآلهية والمثل العليا والفضائل الكريمة التى تعارفت عليها الانسانية فى أطوارها المختلفة ، تهدف من وراء ذلك كله إلى نسف أسمى ما هبط على الإنسان من تعاليم وأديان السماء .

وتقيم على أنقاض هذا كله أساسها المادى ومبادئها التى تقضى على كل ما فى المجتمعات من حب وتعاون وإخاء .

ولقد ساعد على انتشار أفكار الماركسية فى بلاد الاسلام هـذا الفراغ الدينى الرهيب بين الشباب المسلم فكان هذا أول ما يعين الماركسية على تحقيق خداعها ووقوع الكثير فى حبائلها واقتناعها بباطلها والسير - دون تفكير - تحت رايتها الدموية الحمراء

لذا اردت أن أقدم هذا البحث ليقف طلاب الحقيقة وعشاق المعرفة على حقيقة الفكر الماركسى ثم على موقف الاسلام منه ليتضح لهم الحق من الباطل ، والغث من الثمين ، وليعلموا أنه مهما ارتفعت راية الباطل فسوف تسقط يوما عندما يعود أصحاب الحق إلى حقهم يذودون عنه ويتمسكون بأعلامه

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) .

إن قذائف الحق لا بد أن تدك قواعد الباطل ، ولسوف يفعل الشباب ما فعله أسلافهم الأوائل عندما ملأ الايمان قلوبهم فخرجوا يدعون الدنيا كلها ويرددون فى سمع الزمن قول الله تعالى :

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعض أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

ومن أولى من الشباب بهذه الدعوة الكريمة الخالدة ولاسيما وأن الجو العقلى اليوم أكثر استعداداً منه فى أى وقت مضى لقبول الدين ذلكم أن الشدة التى يعانيها الانسان من جراء ماديته التى أخذ ببريقها فى فترة من الفترات هى الفرصة المهيأة لنفوذ دين الله إليه .

ولن يستطيع أى مشكال ساخر أن يجادل فى أن الانسان عندما يدركه اليأس لا يجد له ملجأ غير ساحة الله يحتمى بها ، والاسلام هو الدين الوحيد الذى يستطيع بحق أن يصلح ما أفسدته النزعات المادية الملحدة وأن ينقذ الانسان من الشك والحيرة والقلق وأن يهب له الحياة والإيمان والأمن والأمان ويومها ستخفق راية الاسلام فوق هامات البشرية .

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)

هذا وبالله التوفيق

دكتور
محمد رشاد عبد العزيز دهمش

الباب الأول

الفصل الأول

١ – الفكر المادى وتاريخه
٢ – صراع بين المادة والروح
٣ – الشيوعية قديما وحديثا
٤ – كارل ماركس نشأته

الفكر المادى وتاريخه

لا شك أن الفكر المادى يرى أن جميع مافى الكون مؤلف من المادة ولا وجود لشىء غير مادى فى هذا العالم .

وتضم الفلسفة المادية مفاهيم عديدة ـ قديمة وحديثة ـ لماترى أن هذا الوجود مكون من المادة .

إن أصحاب هذا الفكر المادى يؤمنون إيماناً مطلقاً بعالم الحسى والمشاهدة فليس لديهم فى هذا الكون سوى هذا العالم المشاهد الملموس المحسوس .

إنهم يتصورون أن المادة هى الحقيقة الثابتة التى لا يتطرق إليها الشك لأنها ملموسة ومحصورة فى مكان معين فكأن المادى يضرب بيده و يقول .

هذه هى الحقيقة الوحيدة التى أعترف بها ، لأنى ألمسها بيدى وقدمى ، أو أراها بعينى . أو أسمعهـا بأذنى ، ثم يصف مالا يحس بأنه الخداع العظيم أو الوهم الكبير .

فالمادة عند هؤلاء هى كل شىء ومنها وجد كل شىء وإليها يعود كل شىء ، فهى أساس الحياة وهى مصدر الوجود .

يقول صاحب كتاب مبادىء الفلسفة :

« تطلق المادية على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هو المادة ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شىء واحد ، و يذهب إلى أن المادة أساس كل شىء وينكر وجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها كالحصان يربط فى العجلة ويحل منها .

يقول موليشن :

« مضى الزمن الذى كان يقال فيه بوجود روح مستقلة عن المادة »[١] .

ويرى الماديون أن العقل ليس إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوع ، والحياة والفكر ليست إلا صفتين غريزيتين للمادة ونتيجة لامتزاج جزئيات المادة مزجا معقداً ، فالظواهر النفسية عندهم ليست إلا وظيفة المخ فالانسان يفكر بواسطة المخ كما يهضم بواسطة المعدة ، فالمادة هى أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازات المخ كما تفرز الكبد الصفراء والعين الدموع وعلى ذلك فكل شىء إما مادة أو مظهر من مظاهر المادة والمادة - عندهم - لا تحد ولا تفنى وقوانينها أبدية لا تتغير وهذه المادة لم يخلقها الله ولا الانسان ، بل هى قديمة أزلية أبدية وليس فى العالم شىء يعتريه الفناء ولا ذرة واحدة وإنما تتغير الأشكال فقط .

والنظرية المادية ليست حديثة وإنما هى قديمة قدم الفكر البشرى نفسه ، فلقد كانت الحضارة اليونانية منذ مئات السنين ترتكز على المادية . فقد شملت ماديتهم العلم والشعر والفن والفلسفة والدين ، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا فى شكل آلهة شىء نحتوا لها تماثيل وشيدوا لها معابد وبنوا لها هياكل ، فللرازق آله ، وللرحمة آله وللقهر إله ، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادى ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصوروا المعانى المجردة فى أجسام وأشكال ، فللحب إله وللجمال إله وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة فى فلسفة « أرسطاطاليس » إلا رشحة من رشحات هذه المادية

---

(١) ص ١٣٨ مبادىء الفلسفة دكتور رابوبرت . ترجمة أحمد أمين طبعة ثانية سنة ١٩٢٢

التى لاتنخلى عنها الطبيعة اليونانية »(١) .

وديمقريطس اليونانى هو أول من قال :

« بأنه لاشىء موجود إلا المادة »

ولذلك فإن حضارة اليونان كانت تتميز بما يلى :

١ — الإيمان بالمحسوس ، وقلة التقدير لما يقع تحت الحس .

٢ — قلة الدين والخشوع .

٣ — شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها وشهواتها

وهذه الأشياء التى تتميز بها الحضارة اليونانية هى التى لاحظها كثير من العلماء الأوربيين .

فلقد كان اليونانيون يعرفون بقلة الخشوع ورقة فى الدين ويشتهرون بكثرة اللهو والطرب فى حياتهم ، ينقل « أبوليس » المؤلف اليونانى قول ليكى مؤلف كتاب « تاريخ أخلاق أوربا » إن المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء ، وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء ، ويعلق عليه بقوله :

« لا ريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشوع والخشية ، فلم يكن أهل اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية (٢) .

---

(١) ص ١٧٧ أبو الحسن الندوى فى « ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين » دار الأنصار طبعة عاشرة سنة ١٩٧٧ .

(٢) ص ١٧٨ المرجع السابق .

إن تاريخ اليونان الفكرى والأدبى ملىء بصور الشرك ، مفعم بالوثنية . ولكن الشرك فى اليونان على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود أعطى للآلهة صورا غير كريمة ، بل لقد وصل بها أحيانا إلى صورة تنحط عن صورة البشرية الآثمة .

أرأيت إلى الآلهة ترتشى وتظلم وترنى ؟[1]

وعندما انتقلت الفلسفة اليونانية إلى الروم جرت منهم مجرى الدم وتركت بصماتها القوية الواضحة على فكرهم . وطبعتهم بطابعها المادى المعروف ، فلم يكن الروم يختلفون عن اليونان فى الإيمان بالمحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشك فى الدين وضعف فى اليقين ، واضطراب فى العقيدة واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، يقول الراهب « أغسطين » .

إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهـم فى دور التمثيل » .

بل إن الفكر المادى كذلك وجد عند الأمة العربية فى جاهليتها الأولى فكانوا ينظرون إلى الطبيعة المادية على أنها منها المبـدأ وإليها المنتهى وكانوا يرددون شعاراً يمثل فى قوة عقيدتهم المادية إنهم قالوا : « ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر » .

ولقد صور القرآن الكريم عقيدتهم هذه خير تصوير عندما حكى عنهم « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »[2] .

---

(٢) ص ١٠١ التوحيد الخالص . د عبد الحليم محمود . دار الكتب الحديثة

(٢) سورة الجاثية : ٢٤

صراع بين المادة والروح :

لقد حمل الفكر المسيحي لواء الدعوة بوجود الروح والايمان بها وأنها عنصر قائم بذاته فى هذا الكون وذلك فى مقابل الفكرة المادية التى بدأت منذ صيحة ديمقريطس الأولى ، بأنه لاشيء موجود إلا المادة .

وبدأ الصراع عنيفا بين الفكرتين فتأثرت بهما العقول ، وبدأ تقسيم الوجود إلى روح ومادة ، وشعر الانسان أيضاً وهو جزء من الوجود أنه يتكون من هذه الثنائية ـ المادة والروح .

ولكن الفكرة المادية أخذت تنمو وتترعرع وتزدهر وتقوى بينما النظرية الروحية تضعف وتضمحل وتتراجع ، وخاصة عندما احتضنت الكنيسة نظريات علمية معينة تمسكت بها وقالت عنها مقدسة وأنها من وحى السماء ومن صميم الدين فلا يجوز الخروج عليها ولا البعد عنها ، وإلا عـــد الخارجون كفاراً مادقين .

فلما أثبت العلم بطلانها كان أمراً طبيعيا أن يصدق الناس العلوم التجريبية وينقضوا سلطان الكنيسة الذى يفرض عليهم الأكاذيب ، ويتحرروا بأفكارهم من ربقة الدين .

يقول صاحب كتاب « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » :

ولما كانت نظريات العلم تؤيدها التجربة والواقع ، وفتوحات العلم لا تدع مجالا للشك فى عظمة هذه الأداة المستجدة ، فقـــد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها معا ، وتسكن فى نفوسها العداوة والاشمئزاز للدين ولرجال الدين .

ومن هنا كانت الجفوة بين الدين والعلم وبين الكنيسة والفكر في حياة الأوربيين"(١) .

ومن هنا فقد اتجه جمع من العلماء إلى الوجود فنظروا إليه نظرة مادية بحته فأصبحوا لايرون فيه غير المادة وأضحت الحياة فى رأيهم ليست إلا صفة من صفات المادة ، وإذا تلاش هذا الجسم المادى نتيجة لخلل أو عطب يلحق بعناصره فإن صفاته تتلاش معه ومنها الحياة حيث تبطل خواصه وتنتهى تفاعلاته .

آمن الناس إذن بما أثبته العلم وكفروا بما تقول به الكنيسة وانتهزوا هذه الفرصة السانحة فوقفوا فى وجه طغيان الكنيسة واكتاتوريتها الباغية وقد أمسكوا بأيديهم السلاح الذى يحطمون به أوهامها ويزلزلون به كيانها ويتزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها وكان ذلك السلاح الجبار هو العلم القائم على الملاحظة والتجربة والواقع .

ولعل أكبر زلزلة أصابت الكنيسة كانت على يد « دارون » حين نادى بنظريته فى أصل الأنواع فذهبت أوروبا بعيدا عن الكنيسة والدين معا ، وارتدت رومانية كاملة لايقف شىء فى سبيل نزعتها المادية الرومانية التى لاتعرف غير الجسد ونزواته ، ولا تؤمن إلا بالواقع المادى الذى تثبته الحواس تقول : ذهبت أوروبا بعيداً عن الدين فى طريق اللاعودة ثم نشأت على أنقاض الدين فلسفة مادية بحتة تستمد وحيها من الأرض من واقع الحواس ولاترتفع ببصرها

---

(١) ص ١١ سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام طبعة رابعة سنة ١٩٥٤ دار إحياء الكتب العربية .

لحظة واحدة إلى السماء (١) وتنكر الروح إنكاراً مطلقاً وتنكر مع الروح وجود إله خالق لهذا الكون وأصبح شعارهم قول أحدهم :

« أنا مؤمن بالعلم كافر بهذا الشئ - الروح - الذى لايجدى على أصحابه ولا على الناس شيئاً ، وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه (٢) .

وقد كتب السير جيمس ستيفن يقول :

إذا كانت الحياة الانسانية فى نشأتها قد استوفى العلم وصفها فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين ، إذ ما هى فائدته وما هى الحاجة إليه ؟

إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره ، وإن تكن وجهة النظر التى يفتتحها العلم لنا لاتعطينا مانعبده فهى كفيلة أن تعطينا كثيراً مما نستمتع به ونتملاه (٣)

ويقول « بوفنر » عميد العلماء الماديين فى العصر الماضى .

« من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات . فلا يبقى إذن محل للاعتقاد فى قوة خالقة مشخصة » ويقول « إن الانسان محصول المادة وليست له خاصة فكرية على النحو الذى يتصور الروحانيون (٤) .

---

(١) ص ١٤-١٥ محمد قطب : الانسان بين المادية والاسلام دار أحياء الكتب العربية .

(٢) ص ٤٨ د . سليمان دنيا : التفكير الفلسفى فى الاسلام .

(٣) العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين . مكتبة الانجلو المصرية

(٤) الشيخ محمد الغزالى : عقيدة المسلم ص ٢٣ .

وهكذا أخذت رياح النظرية المادية تهب — بين الحين والآخر — على المجتمعات البشرية فى قوة مرة وفى ضعف مرة أخرى حيث تأثر بها الشرق والغرب معا وإن كانت درجة التأثر متفاوتة حيث بلغت ذروتها فى مفتتح القرن التاسع عشر فى أوربا حيث وجه نابليون بونابرت سؤالا إلى علامة الفلك فى زمانه « لا بلاس » عن عمل القدرة الالهية فى تنظيم الأفلاك السماوية وكان لتوجيه هذا السؤال إلى لابلاس سبب خاص به وهو ظهور كتابه عن الحركة العلوية أو « الميكانيكا السماوية » وفيه يشرح حركة الفلك ويعللها بالقوانين الآلية كما يدل اسم الكتاب — فقال علامة الفلك مجيبا سائله الكبير الذى كان يقول فى الدين بمثل قوله .

« إنى لم أجد فى نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله »[1] .

وهكذا اتجه الغرب أو بعبارة أدق انغمس الغرب فى المادية بقوة وسرعة .

فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرهم ينظرون فى الكون نظراً مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ولا آمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة أو المادة تتصرف فى هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت ، وأبوا الايمان بكل مالا يقع تحت الحس والاختيار والتجربة ، ولا يدخل تحت الوزن والعدد والمساحة . فأصبح - بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم - الايمان بالله تعالى وبما وراء الطبيعة والدين من قبيل المفروضات التى لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

ولذلك فقد بدأ الاستهزاء بالدين والسخرية بمن يقول بوجود إله خالق وصانع هذا الكون ، يقول ديفيد هيوم « لقد رأينا الساعات وهى تصنع فى

(١) عقائد المفكرين ص ٢٥ .

الصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا » .

ويقول فرويد :

« إن الدين ناشيء عن الكبت » .

ويقول دور كايم :

« إن الدين ليس فطرة » .

ويقول كارل ماركس :

« إن الدين أفيون الشعوب وأنه مجموعة من الأساطير إبتدعها الأقطاعيون الرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة »[1] .

وهكذا أطلق الماديون يحاربون الأديان والقيم الأنسانية والوحي السماوي والمثل العليا والسجايا الحميدة ، والأخلاق الكريمة ، والفضائل العالية ، ونهض الكتاب في كل ناحية من أوربا ينفخون في صور المادية ، وينفثون بأقلامهم سمومها في عقل الجمهور وقلبه ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً ، فتارة ينشرون فلسفة المنفعة ، وطورا يروجون فلسفة اللذة الأبيقورية ، ومرة ثالثة يفلسفون المذاهب الهدامة الملحدة حتى أصبح الرجل العادي في أوربا لايرى سوى المادة ولايعبد غيرها .

يقول الأستاذ الألماني المسلم محمد أسد :

إن الرجل العادي في أوربا ديمقراطيا كان أو فاشيا ، رأسماليا كان أو اشتراكيا ، عاملا باليد أو رجلا فكريا إنما يعرف دينا واحدا وهو عبادة الرق المادي ، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل

(١) الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة ص ٢٨ للاستاذ أنور الجندي

وبالتعبير الدارج حرة مطلقة من قيود الطبيعة ، أما كنائس هـــذا الدين فهى المصانع الضخمة ودور السينما والمختــبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء المصارف والممثلات وأقطاب التجارة والصناعة . ونتيجة هذه النهامة للقوة والشره واللذة - النتيجة اللازمة - هى ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح والاستعدادات الحربية مستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها .

أما فى جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيــلة فى الفوائد العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادى لا غير[1]

ولقد كتب هنرى ماى فى كتابه « دفاع عن الغرب » يقول :

« الحضارة الحديثة شر مستطير لأنها تجعل السعادة المادية الغرض الوحيد من الحياة وهى تسخر الغربيين وتفسد الشرقيين وتجعلهم جميعاً عبيد المال » [2]

بعبارة أخرى موجزة تقول :

إن الحضارة المادية لا تجحد الله فى شدة وصراحة فحسب ، ولكن ليس فى نظامها الفكرى موضع لله فى الحقيقة ، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه ومن النظرة المادية للحياة نشأت كل النظريات الحديثة وكل الفلسفات المسيطرة عليها .

منها نشأت فلسفة فرويد فى أوربا ، والبراجماتزم فى أمريكا ، والوجودية الملحدة فى فرنسا .

---

(١) ص ٢٠٠ ماذا خسر العالم الندوى

(٢) الإسلام والاشتراكية ص ١٠١ ميرز أحمد حسين

ومنها كذلك نشأت شيوعية كارل ماركس ، وكلها تمثل أصلا واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع ، ولكن والحق يقال - أخطر هذه الفلسفات المادية هذه الفلسفة التي جاء بها كارل ماركس وأخذ يحارب بها المثل السامية التي توارثتها الإنسانية والفضائل العالية التي عاشت عليها البشرية في الأرض ، كما أخذ يحارب بها كل الأديان التي جاءت للإنسانية من وحي السماء .

وسوف ندرس هذا المذهب الشيوعي في الفصول التالية .

الشيوعية قديما وحديثا

ليست الشيوعية فكرة جديدة أو مذهبا حديثا كما يتبادر إلى أذهان كثير من الناس ، وإنما الشيوعية كفكرة مبدأ قديم سار عليه البدائيون فى شيوعية الارض فكانت للقبيلة وفى شيوعية النساء فكان الزعيم كل النساء فى مجتمعة أو كل امرأة فى أسرته .

بل لقد دعا أفلاطون الفيلسوف اليونانى المعروف إلى الشيوعية فكان يرى أن يكون لزواج بين النساء والرجال مشاعا فلا يخص أحد نفسه بزوجة خاصة وكذلك أولادهم يكونون مشاعا فلا يعرف والد ولده[1] .

وكان يرى أن هدف الدولة هو رعاية مصلحة مجموع الامة وليست مصلحة الفرد ويجب أن تنهار هذه المصالح الفردية فليس هناك ملكية خاصة وليس هناك اختصاص الأب أو الأم بأولاد معينين بل اشتراكية فى الأمـــوال والنساء والأولاد والدولة تملك الأولاد منذ ولادتهم ، وحتى لا تنشأ بين أعضاء طبقات المجتمع الثلاث ، (الحكام — الجند — الطبقة العاملة) الغيره والتنافس يجب أن يسود حياتهم نظام اشتراكى ، فلا يجوز لاحدهم أن يملك متاعا أكثر من حاجته الضرورية ولا أن يكون له دار خاصة وكل ما يتقاضاه حكام هذه الدولة يجب أن لا يزيد عن مبلغ محدد يكفى لسد الحاجة طوال العام وينبغى أن يشتركوا جميعاً فى موائد عامة للطعام ولا يجوز لهم أن يتخذوا زوجات لهم ، بل يخصص لهم جميعاً عـــدد من النساء ، يكون لكل من يرغب الحق فى الاتصال بأية امرأة منهن .

هذه هى اشتراكية أفلاطون أو شيوعيته وهى قائمة على الاشتراك فى المال

---

(١) الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب د . محمد بيصار ص ١١٤ .

والأولاد والنساء كما صورها فى جمهوريته ونادى بهـــا ورافع عنها ولكن المجتمعات القديمة لم تكن بعد قد تهيأت لقبول مثل هذه الأفكار فلم تأخذ بها ووصفت أفلاطون بالاسراف البالغ فى المثالية [1] .

وكان تلميذه أرسطو من أنصار هذا الاتجاه فكان يرى أن الدولة نظام طبيعى ضرورى يضمن للفرد تحقيق كيانه المادى والمعنوى ، فوظيفة الدولة إسعاد الشعب وبدونها لا يمكن أن يسعدوا ويرى أن شخصية الفرد لابد أن تذوب فى شخصيتها .

كذلك فعل مذدك الذى عاش فى أواخر القرن الخامس الميلادى فى بلاد فارس حيث ذهب إلى أن العالم كى يتخلص من الأحقاد لابد من القضاء على أسباب الحقد وأسباب الحقد — كما يرى — تكمن فى المال والنساء وامتلاكهما ، ومن هنا فقد نادى بالشيوعية فلا ملكية ولا زواج بل يتاح الأموال والنساء كما يتاح النار — والماء والهواء إن هذه القوانين التى تحول بين الانسان وبين مايشتهى إنما هى من صنع البشر وهى — فى رأيه — عنوان الظلم ونادى مزدك كذلك بالقوانين الطبيعية التى هى سائدة بين الحيوان [2] .

أما سينيكا أحد زعماء المذهب الرواقى .

فإنه يشيد بالشيوعية البدائية التى كانت تسود فيها الفضائل الاجتماعية النقية قبل أن يضل المجتمع بالجشع وينتشر فيه الفقر الناشىء عن الملكية الفرديه ،

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية د عوض الله حجازى ص ١٤٠ وقصة الفلسفة اليونانية ص ١٨٧ لأحمد أمين والمـــذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب ص ٨٣ .

(٢) ص ٦١ د . بركات دوراد فى الوحدانية : مكتبة النهضة المصرية .

فهو يرى أن الناس لم يعودوا يملكون كل الأشياء حين بدأوا يدعون ملكية شيء منها (١) .

وها هو جان جاك رسو يذهب في كتابه (أصل عدم المساواة بين الناس) إلى أن الملكية الفردية مخالفة للطبيعة وأن إلغاء هذا النظام والعودة إلى الطبيعة هما أساسان لقيام العصر الذهبي للانسان ويقول صراحة [لن يكون مصيركم إلا التلف والضياع لو نسيتم أن الأرض ليست ملكا لأحد وأن ثمارها لنا جميعا (٢) .

ولقد دعا إلى هذه الشيوعية أو بعبارة أدق دعا إلى بعض جوانبها كثير من القادة لتحقيق شهوته أو تأمين هوى نفسه ، أو اشباع رغباته ونزواته ، كما اتخذه القرامطة والحشاشون منهجا .

وحمل لواء هذه الفكرة — الشيوعية — كذلك كل الثائرين على السلطة وكل المفسدين في الأرض وكل الحاقدين على المجتمع لجذب أهل الغواية إلى صفوفهم ولكسب أصحاب الشهوات إليهم ، ولانضمام أهل الهوى لهم وذلك عن طريق شيوعية النساء وإثارة كوامن النفس لهدم فكرة الأخلاق والعصف بسيادة القانون الذى يحد من الهوى والشهوة .

كما عمل على رواج هذه الفكرة أصحاب الأفكار الهدامة ، والنظريات الفاسدة ، هؤلاء الذين يتنكرون لكل فضيلة ، ويعملون على نشر كل رزيلة .

ولكن هذه الفكرة — الشيوعية — لم تلبث أن تضمحل وتزول وتتلاش

---

(١) ص ١٦٢ د . عز الدين فوده : خلاصة الفكر الاشتراكى دار الفكر العربى سنة ١٩٦٩ .

(٢) المرجع السابق .

وذلك بنهاية مروجيها وسرعان مايظهر فسادها حتى للذين اتبعوها أو روجوا لها ، وذلك عندما يبدأون فى الصعود إلى أول درجة فى سلم التفكير السليم .

حيث تظهر لهم بوضوح جلى أنها معول لتهديم المجتمع وتحطيم نظمه وإزالة قواعده وإزالة كل بناء اجتماعى وتمزيق كل رابطة إنسانية ونسف كل مودة أخوية وإشاعة الحقد والخوف ونشر الكره والضغينة بين طبقات المجتمعات لتسير فى طريق الفناء السريع .

أما الآن فالشيوعية أصبحت نظاما سياسياً يعتنقه جماعات متعددة وتسيطر على أراضى واسعة

وما بلد إلا ولها أنصار فيه تتخذ منهم وسيلة لتحقيق أعراضها السياسية وتمدهم بالعون وينفذون مايطلب منهم دون مناقشة أو تفكير أو نظر ودون رعاية لمصلحة بلادهم وأوطانهم تلك التى درجوا على أرضها وترعرعوا فى ظلالها وغذوا بطعامها وارتووا بمائها وكان لهم نصيب كبير من ذكرياتها .

وأول من دعا إلى هــــذا النظام أحد اليهود وهو كارل ماركس وكان من ورائه أصابع اليهود الدولية وجماعات الصهيونية العالمية التى حملت لواء الدعوة إلى الجانب المادى المقابل للنظام الرأسمالى الذى تركته الأيدى نفسها وتوجيه الأصابع ذاتها وذلك لايجاد الصراع بين الطبقات وبين الانظمة لافساد الناس وبث الشكوك فى العقائد ونشر الزيغ فى الدين والمجاهرة بالالحاد والدعوة إليه وفتنة المجتمعات حيث كان الوقت مناسبا .

وبالتالى سيطرة الذين يكمنون خلف هذا النظام على مقدرات الناس ، وجعل الشعوب تتحرك وفق هواهم وحسب رغبتهم ودفع المجتمعات إلى الســــير حسب مخططاتهم .

ولقد كان معظم قادة هذه الفكرة يوم استلامها السلطة من أتباع مذهب ماركس الأول رغم قلتهم النسبية الضعيفة ورغم مناداتهم بالإنسلاخ من الدين وهذا مايعطى الأشارة إلى الأصابع الخفية التى تعمل من وراء هذا التنظيم .

وهذه الفكرة بسبب التخطيط المنظم الذى تهيئه جماعة من الخلف يحجبها عن الأعين حجاب رقيق شفاف لمن ينظر بعين بصيرة خالى الهوى مجرد الفكر وبغطاء كثيف لمن ينظر بعين لا ترى النور .

وبسبب طاعة ذلك القطيع المقهور البائس اليائس الذى تصور له الشيوعية الحلم الزاهر والأمل العاطر فيحجز بين عقله والتفكير حاجز قوى من الأسمنت المسلح لا يمكن اختراقه حتى إذا تم للزعماء مايريدون ودخل الفرد من هـــذا القطيع فى فردوس الشيوعية المزعوم ، تمنى لو لم يكن فعل ما قد فعل وندم على ما عمل ولكن هيهات هيهات فلا يجدى الندم ولا ينفع البكاء ولا يمكنه الخروج ـ مهما حاول ـ من ذلك الستار الحديدى فلا يملك ـ تحت القبضة الحديدية ـ إلا أن يستكين ويخضع ويمشى مع القطيع فى متاهات مجهولة .

فالشيوعية تطلب من أتباعها أن يكونوا منفذين دون اعتراض ومنقادين دون نقاش وخاضعين ـ دون اعتراض ـ لرأى القادة والزعماء مادام يسيطر على العالم نظام يتطور بأسلوب مادى بحت لا يمكن تغييره أوتبديله ، والإنسان فيه معدوم ، وتأثير العقل عليه ركام لا يمكن تحريره ، والبشر يتجه حسب خط معين مرسوم لا يمكن تطويره ووقعه منهج معلوم لا يمكن تحويره وكل مخلوق لاينفعه تفكيره سوى القادة الشيوعيين الذين يفكرون نيابة عن القطيع ، وكل أفراد هذا القطيع عليها أن تستقى من هذا التفكير ولا يحق لها أن ترى إلا من هذا المنظار .

لقد استطاعت هذه الفكرة - بسبب أوضاع خاصة وجدت - في روسيا - أن تتسلم مقاليد الحكم وأن تستولى على زمام السلطة وأن ترث القيصرية الروسية وأن تنشيء قوة وامبراطورية حديثة تسمى بالاتحاد السوفيتى إحدى الدولتين العظميين فى عالمنا المعاصر وأن توجه سهامها المسمومة للاسلام والمسلمين حيث تعتبر الإسلام عدوها الأول بل الأوحد لأنها تجد فيه النظام الشامل الكامل الذى يمكن أن يقف أتباعه - ضدها - وهم على أرض من الصخر بأقدام ثابتة يزنون بآرائهم آراءها وبنظامهم السماوى نظامها الاجتماعى والفكرى والاقتصادى والمادى ويفندون مزاعمها ويظهرون أباطيلها ويوضحون شرورها ويمنعون تقدمها ويوقفون زحفها ويسقطون أعلامها ويحـــذرون الناس من نيرانها ويبينون لهم غدرها ولؤم طبعها ويكشفون ادعاءاتها ويبطلون باطلها [بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)[1] .

إن الشيوعية تدرك أنه فى الوقت الذى خضع فيه أتباع الديانات الأخرى لهم وانخرطوا فى حزبهم ومشوا فى تيارهم ، وانضووا تحت راياتهم - فإن المسلمين هم وحدهم الذين لا تزال فيهم بقية باقية من عنصر الإيمان يحركهم للثورة والإنقضاض على الشيوعية ، ومهما قيل فى ذلك فإن المسلمين بدينهم الاسلامى العظيم هم وحدهم الصخرة الشماء والعقبة الكأداء التى تقف فى وجه الغزو الفكرى الشيوعى وسيطرته فى كثير من الأمم والشعوب

والصراع الرهيب بين الشيوعية والإسلام بدأ منذ اليوم الذى أصبح فيه للشيوعية صولة ولا يزال هذا الصراع قائماً وسوف يظل محتدما حتى تقوى فينا نزعة الإيمان ونستظل فى حياتنا وتشريعاتنا ونظم حكمنا بظلال القرآن وأن

(١) الأنبياء آية ١٨

لتطهر قلوبنا مما علق بها من أدران المادة لتصلح نفوسنا فى تحمل تبعات ديننا .

وصدق رسولنا إذ يقول [ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب](١) .

إن الحركة الإيمانية يجب أن تركز جهدها على إصلاح هذا الأساس من الآن ، فإنك لو تمكنت من إصلاح القلب فإنك بذلك تكون قد وضعت يدك على لوحة المحولات فى مصنع الإنسان ، وإن أخفقت فى وضع اليد عليه فقد فشلت فى الحصول على أى شىء رغم سيطرتك الظاهرة على كل شىء وعند ذلك فقط سوف تقضى مبادىء الإسلام على زيف الشيوعية المجرم .

إن الإسلام اليوم يمر بفـــترة قاسية إذ تهب عليه من الشرق والغرب معاً تيارات الحادية ومذاهب مادية وأفكار هدامة وتعاليم باطلة ومبادىء فاجرة فقد ظهرت نظريات كثيرة فى العصور الأخيرة تتحدى صلاحية الإسلام باسم العلم الحديث والفلسفة الجديدة .

أنها تدعى أن تصورات الله والدين محض خديعة ، ولاحقيقة وراءها ، إن هذا التحدى ليس بصراخ المجنون ، بل يوجد على ظهره فكر خطير أثر فى الفكر المعاصر تأثيراً جعل جميع العلوم الحديثة تتأثر به بدرجة أو بأخرى

ومن هنا فمن واجب المسلمين أن يقفوا على هذه النظريات وتلكم المذاهب والأفكار وفى مقدمتها الماركسية ليعلموا فلسفتها وأسلوبها وهدفها وموطن القوة والضعف فى فكرها ثم ليوجهوا لها الطعنة النجلاء وليخرجوا من هذا المعترك وفى يدهم راية النصر وأعلام الفوز والغلبة فتعالوا بنا لنعرف المذهب الماركسى ومن صاحبه وما أهدافه والأسس التى يقوم عليها ، وسبل انتشار الأفكار الماركسية وموقف الإسلام منها .

---

(١) مسلم جـ ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

كارل ماركس ونشأته :

يقول علماء الاجتماع : إن الانسان نتاج عصره وأثر بيئته ووليد مجتمعه وهذا صحيح — بلا شك إلى حد ما — فالإنسان كالمرآة تنعكس عليه أحداث عصره ، ويتأثر بما يجرى فى بيئة ولا يستطيع — فى أكثر الأحايين — الفكاك عما يدور حوله وما يحيط به .

ولقد كان عصر ماركس بحق عصر المادية بما انطوت عليه من تطور آلى فى محيط الانتاج ، وكانت تقوم المادية — كما سبق — على اعتبار العالم كما هـــو دون أن تضيف إليه أى عنصر غريب عنه ولقد اضطر الانسان إلى الأخذ بهذه الطريقة فى النظر إلى العالم حيث كان يشبع حاجاته عن طريق السيطرة على الطبيعة ، ولهذا شجعت الطبقات المختلفة فى المجتمع الأوربى التفكير المادى بينما أخذت تحارب — فى الوقت نفسه — الفكرة القائلة بأن النظام القديم للاشياء إنما هو تجسيد لإرادة العناية الآلهية .

فى هذا العصر الذى لم يؤمن إلا بالمادة ، وفى هذا المجتمع الذى لم يرفع رأسه نحو السماء ، ولم يشعر بنسمة من نسمات الروح تلك التى تلطف من جفاف المادة وفى هذه البيئة التى غرقت فى أمواج النزعة المادية ولد كارل ماركس فى اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨١٨ . فى بلده تريف فى القطاع الالمانى من حوض الرين حيث كان والده يمارس مهنة المحاماة ويدين باليهودية .

يقول ليدر : إن أباه كان من رجال الشريعة الاسرائليين وإن جده كان من الربانيين وإن أمه تنحدر من أسرة هولندية ربانية هاجرت من هولنده فى القرن السابع عشر إلى البلاد المجرية وهذه الأسرة العريقة فى الديانة اليهودية قد تحولت — أبا وأما عن دينها إلى الدين المسيحى بعد ولادة كارل بست سنوات حيث نبذت دين الآباء والأجداد ودخلت فى حظيرة الكنيسية البروستانتية .

ولقد تعددت الأقوال وتضاربت الآراء في تعليل هذا الحدث الخطير فلسبة البعض إلى دوافع مادية وبواعث ذاتية ، ذلك أن اليهود كانوا موضع الكراهية والازدراء فأراد الرجل أن يتخلص من آثار هذه الوصمة العالقة به ، وأن يمهد في الوقت ذاته لابنه الطريق للتقدم والنجاح في المجتمع البرجوازي[1] .

ويظن البعض أن للأزمة الزراعية التي تعرضت لها البلاد في ختام العقد الثاني من القرن دخلا في هذا التحول الديني ، لأن هذه الأزمة سبقت تحطيم الملكيات الكبيرة وانقسامها نتيجة عجز أربابها عن الوفاء بديونهم للمرابين اليهود ، وقد أحـــدث ذلك عاصفة من السخط والحقد على أفراد الطائفة الإسرائيليين ، الأمر الذي حمل الكثيرين منهم على اعتناق المسيحية خلاصا لأنفسهم وأموالهم .

ولكن الذي نراه أنه هذا ربما عجل بقرار متريث وإن لم يكن السبب الحقيقي فيه .

وأغلب الظن أن الاسرة تركت دينها من أجل العيش والحياة الآمنة في رحاب المسيحية ورأت أن نبعد ابنها الصغير عن دينها الأول حتى لايترك هذا الدين بصماته عليه في المستقبل .

يقول العقاد :

لم يتحول الأبوان معا عن عقيدة وإيمان صادق بالمسيحية ولكنهما اتفقا على ترك الدين الذي انحدرا من سلالة فقهائه ورؤسائه تمهيدا لفرص العيش ثم تمهيدا لفرص المستقبل أمام الابن الذي بلغ السادسة وأرادا في هذه السن الباكرة أن يحولاه معهما عن ديانة الآباء والأجداد إلى ديانة الدولة والمجتمع الذي يعيشان فيه ، وليس أنسب من سن السادسة لتحويل طفل صغير من دين إلى دين ، لأنه

(١) ص ١٩ د . احمد نظمي وآخر : النظام الاشتراكي .

قد يتأخر عن السن المناسبة لتبديل معتقداته وشعائره إذا بلغ سن المراهقة على دين الآباء والأجداد [١] .

ولا يبعد أن يكون هذا التحول إلى المسيحية تحولا سياسياً أو هربا من الإضطهاد الذى كان يقع على كل من يتعاطف أو يميل إلى النزعة التحررية التى كان هيرنج يميل إليها فقد وصفه أصحابه بأنه كان فرنسى الهوى أصيلا فى فرنسيته ع -تظهر كتب فولتير ، ويؤمن إيمان نيوتن ولوك وليبنز بآ له غامض بعيد وكان من السهل عليه إذن اعتناق المذهب البروتستانتى لا عن اقتناع وإنما ليأمن شر السلطات البروسية التى كانت تضطهده بسبب نزعته التحررية (٢) .

وقد يكون هذا التحول تخلصا من سوء المعاملة وازدراء اليهود آنذال أو لجمود التقاليد الدينية للطائفة [٣] .

ومهما يكن من شىء فإنه لم يأت أوائل سنة ١٨٢٢ حتى كانت الكنيسة قد قبلت هنرنج بين رعاياها .

ولعل عداء كارل ماركس لكل ماله صلة بالأديان وبخاصة اليهودية يرجع فى بعض نواحيه إلى الموقف الغريب المحير الذى ألفى أمثاله — ممن تحولوا إلى المسيحية — أنفسهم فيه فلقد وجد بعضهم لهم بأن صاروا مسيحيين مخلصين بل ومتعصبين أحيانا ، كما وجد البعض الآخر مخرجا فى الثورة على جميع الأديان المعترف بها ، فكان ما يستشعرة لا واحد منهم من ألم نفس يشتد أو يقل بنسبة حساسيته وحظه من الذكاء ، فنجد بعض من ترك دينه قد ظل طوال حياته تلاحقه مشكلته الشخصية الناجمة عن وضعه الغريب ، فلا هو قد قبل هذا الوضع

---

(١) ص ٤٤ الشيوعية والانسانية للعقاد .

(٢) ص ٦٩ كارل ماركس تأليف هنرى لونافردار بيروت للطباعة سنة ٩٧٢

(٣) ص ١٤ عشرة من أئمة الإقتصاد : تأليف جوزيف ترجمة د. حسين عمر

بخذافيره ولا هو قد أنكره بخذافيره ، بل تارة يهزأ بدين آبائه وأجداده ، وتارة يدافع عن هذا الدين غير قادر على اتخاذ موقف ثابت تجاه موقفه المعقد يضك باستمرار فى أن يكون هناك احتقار كامن أو شعور بالتنازل يختفيان وراء مايبديه المجتمع نحوه حين تقبله بين أعضائه .

وللوراثة تأثير كبير لايسعنا إنكاره ، وليس موقف الأسرة من الدين هو كل مانلمحه من الخلائق الموروثة وأثرها فى تكوين أفكار كارل أو بواعث تفكيره ، فإن اعتلال صحة كارل كان مسبوقاً بعلة مثلها فى أبيه الذى مات بها قبل بلوغ الشيخوخة ، وقال الأطباء فى محضر الوفاة أنه داء الكبد ولم تكن أمه كذلك أصح من أبيه كما يؤخذ من أخبارها القليلة وكان له أخ يسمى « أدوارد » أصابه داء الهزال فمات فى صباه [1] .

وهكذا لازم كارل الخالل فى جسدة من مطلع حياته وذلك لمرض الكبد المتأصل واعتلال بفيتة اعتلالا ينبىء عن وهن أصيل فى التركيب .

وها هو « أرتو روهل » صاحب كتاب كارل ماركس ومن الذين يدينون بالمذهب الماركسى يفسر نقائص كارل باختلال جسده فيقول :

إنه كان نموذجا فيما كان يعانيه من اعتلال نشاطه الروحى وكان على الدوام متقلباً مبتئساً حقوداً ، وكان عاجزاً فى صباه عن المثابرة على دراسة ترشحه لعمل يعينه على مطالب العيش ، وأصبح فى كهولته عاجزاً عن المثابرة على جهد من الجهود العقلية يتكفل بغذاء الشخصية كلها وإذا اتجه إلى الكتابة فإنه يبدؤها ويهملها ولاينتهى فيها إلى نتيجة ولا محصول بل كان يهدم مايعمله بيده ولعل الرسالة التى أرسلها له والده خير دليل على ذلك ، يقول الأب فى رسالته .

---

(١) ص ٤٦ الشيوعية والإنسانية للعقاد

« إن بعض الناس ينامون ملء عيونهم إلا أن يستدعيهم السرور إلى سهر الليل كله أو بعضه على حين يقضى ولدى الموهوب الذكى - كارل - جملة لياليه مرهقا جسده وعقله فى دراسة لا لذة فيها ، معرضاً عن جميع الملهيات فى طلب المشكلات الغامضة ليهدم غداً مايراه اليوم ويرى بعد ذلك كله أنه أضاع ما لديه ولم يستفد شيئاً مما لدى الناس(١)

وهناك حادثة أخرى أثرت فى كارل تأثيراً شديداً ، ذلك أن والده كان قد ألقى خطبة فى مأدبة عشاء عامة دعى إليها وقد نوه فيها بالحاجه الملحة إلى الاصلحات الاجتماعية والسياسية المعتدلة التى تليق بحاكم خير حصيف فلم تلبث خطبته أن وجهت إليه أنظار الشرطة البروسية، وكان من المفروض أن يتمسك ماركس الأب بكل مايعتقده بل ويدافع عنه ويناضل فى سبيله طالما أنه على حق ، ولكن هذا لم يحدث ، بل حدث العكس تماماً ، فقد تملكه الخوف والهلع ، وسرعان ماسحب الرجل كل مانادى به وأقنع الجميع فى مزلة بأنه رجل مسالم .

وكان من الطبيعى أن يترك هذا الحادث الذى انطوى على قدر من المذلة والمهانة ، وما اتسم به موقف أبيه من خنوع وخضوع — أثراً لايمحى فى نفس كارل وكان فى السادسة عشرة من عمره وقتئذ ، كما خلف وراءه إحساسا من الاستياء الكامن أثر فى حياته بعد ذلك(٢)

واقد أدرك ماركس أن ابنه كارل صعب المراس مضطرب المزاج وأنه عنيد متسلط ، فاستشعر الحيرة والذعر أمام صلابة ابنه حيث يعتقد أنها لابد مسيرة عدواة أشخاص وقد توقعه يوما فى مشاكل خطيرة ،ولذلك كثيراً ماكان يتوسل إليه بحرارة فى تلك الرسائل التى كان يرسلها إليه كى

---

(١) صـ ٣٣ المرجع السابق
(٢) صـ ٢٣ كارل ماركس تأليف إيسيابرلين ترجمة عبد الكريم احمد (٣ - الفكر المركسى)

يخفف من غلوائه وأن يفرض على نفسه شيئاً من السيطرة وأن يتحلى بالعادات التى يفرضها ناموس الحضارة وألا يغفل عما يحسنون إليه ثم قيل هذا وذاك لايعادى الناس جميعا بصلابته ورفضه كل مواءمة بين نفسه وبين ظروف بيئته ، ثم يستنكر الأب مسلك ابنه استنكارا شديداً .

والحقيقة أن كارل كان حاد المزاج مضطرب التفكير يعامل أصحابه بغرور كبير وكبرياء شديد ولا يتورع عن الانتقام من كل من يرتفع إلى مكانة الشهرة ، وكان ينطوى كما يقول « باكونين » على خلتين ذميمتين الغرور والغيرة ، أنه أنانى يفرط فى أنانيته لحد الجنون وتسمعه يتحدث قائلا : أفكارى . آرائى ، وينسى أن الأفكار والآراء ليست ملكا لأحد على التخصيص . وأن أصلح الآراء هى تلك التى تتمخض عنها البديهة العامة(١) .

وعن طريق الأب عرف كارل الأدب الفرنسى وبخاصة شعر راسين ، ويبدو أن تأثره كان عظيما إلى حد أنه حاول وهو فى الجامعة أن ينظم القصائد وإن لم يكن ذا استعداد فطرى لذلك

ويعتقد بعض الكتاب أن ميله إلى الناحية الوجدانية فى الأدب كان أحد البواعث التى جعلت منه فى المسائل السياسية عدوا المشاريع الخيالية بصدد الاصلاح الاجتماعى . ولهذا اقتصر على ما عده الطريقة العلمية الوحيدة وهى دراسة التطورات التى لابد أن يمر بها العالم المادى الواقعى .

أما معالجات النظريات والمبادىء المجردة — فى نظره — فضيعة للوقت وعبث لا طائل تحته .

وبعد أن أتم كارل دراسته بالمدرسة الثانوية فى تريف استقر رأى

---

(١) ص ٣٨ ، ٣٩ من كتاب الشيوعية والانسانية للعقاد .

أسرته على ارساله إلى جامعة بون فغادر كارل بلدته وهو فى السابعة عشرة حيث التحق فى خريف عام ١٨٣٥ بناء على نصيحة أبيه بكلية الحقوق حيث كان الوالد يطمع أن يجعل من ابنه أحد رجال القانون إذ قررت الحكومة زيادة عدد المحاكم فى المنطقة الأمر الذى يكفل لكارل مستقبلا طيبا — وأخذ الطالب يتابع محاضرات « ستيفنسن » فى الأبير ويولوجيا (التاريخ الطبيعى للإنسان) ويتابع محاضرات [غان] فى الحقوق الجزائية وكان غان هذا من أتباع هيجل التحرريين وعلى شىء من الميل إلى سان «سيمون وتابع أيضا محاضرات كارل فون سافين وهو المؤسس الشهير لمدرسه الحقوق التاريخية وكان كارل قد انضم إلى نادى الشعراء .

ولكن سرعان ماهجر كارل الشعر ودراسة الحقوق — جريا على عادته المتقلبة — واتجه إلى الفلسفة حيث كتب إلى والدة يقول «لا يستطيع الشعر أن يكون ولا يجب أن يكون إلا هامشا جميلا كان على دراسة الحقوق ولكنى أحسست بميل خاص إلى الفلسفة(١)» ولكن سرعان ماترك دراسة الفلسفة أيضا وأخذ يدرس الاقتصاد وقد عاش كارل عيشة الطالب الألمانى اللاهية وكان ينقطع عن الجامعة ويسترسل فى سهراته مع غواة اللهو والعربدة ويهجر البلدة كلها بون مقر الجامعة ليذهب إلى كولون فى جوارها ويبتغى فيها من الملاهى والسهر مالم يكن ميسوراً له تحت الرقابة الجامعية ، وحدث فى بعض هذه السهرات أنه سيق إلى دار الشرطة مع جماعة من السكارى لأفراطه فى السكر والعربدة وأنه سيق إلى المبارزه مرة أخرى وتبين من تقرير الشرطة أنه استخدم الأسلحة النارية فيها(٢)

وبعد أن أتم كارل دراسته فى جامعة بون تركها والتحق بجامعه برلين

(١) كارل ماركس ص ٧٠ لهنرى لوففر ترجمة محمد عيانى

(٢) ص ٤٧ الشيوعية والإنسانية للعقاد .

وهى مركز الثقافة والحركات الفكرية آنذاك ، ولكن قبل أن يلتحق بالجامعة الأخيرة كان قد تعاهد وجينى فون وستفالت على الزواج عندما تسمح الظروف .

وجينى هذه كانت تكبر كارل بأربع سنوات وكانت تهيمن بجمالها على مدينة تريف وقد ظلت أوساط تريف الاجتماعية عشرات السنين تذكر تلك الحسناء التى سميت (الأميرة الساحره) و (ملكة الرقص)

ولم تكن الطبقة الارستقراطية لتفهم كيف استطاعت هذه الفتاة الحسناء النبيله ابنة مستشار الدولة أن تحب طالباً فقيرا لاحظ له من الوسامه ذا مستقبل معرض لعصف الرياح ومن أسرة يهودية(٢)

وفى الحقيقة أن اسرة جينى قد أعلنت معارضتها الصريحة لهذا الزواج الذى تم رغم هذه المعارضه .

وعلى أثر وفاة أبيه شب خلاف وخصام بين كارل ووالدته التى أطلقت كلمة تدل على دوافع النزاع فى هذه الأسرة حيث قالت :

كان أفضل لكارل لو جمع شيئاً من رأس المال بدلا من أن يؤلف المجلدات عن رأس المال »

فلقد كان من المنتظر ومن المتوقع أن يتحمل كارل بعد وفاة أبيه أعباء الأسرة وأن يذهب ليواس أهله وأخوته الصغار ولكنه لم يفعل ؛ بل أخذ يطلب نصيبه مما تركه والده ثم مال — بعد أن نفذ هذا النصيب — على نصيب أخوته حتى ضاقت به أمه التى أرسلت إليه تقول

إنك الآن فى الرابعه والعشرين فاعتمد على سعيك فى كسب رزقك

---

(١) البروس الأحمر ص ٥٤ نقلا عن العقاد فى المرجع السابق

ولا تنتظر بعد اليوم مدداً نقطعه لك من قوة أهلك ولقد فعل والده كذلك من قبل حين أرهقه كارل بطلب المال فأرسل إليه مؤنبا قائلا :

ماذا تظن ؟ أتراك تحسبنا مخلوقات من الذهب ؟ ؟ لقد كان كارل مثالا للتقلب والاهمال لكل الأعمال التى يحاول أصدقاؤه إيجادها له تخلصاً من كثرة مطالبتهم بالمساعدة حتى ملوا منه فأقنعوا الناشر « لسكى » على إعطاء كارل مبلغا من المال نظير تأليف كتاب فى النظريات الاقتصادية ،وانقضت أربعة عشر سنة ولم يظهر هذا الكتاب ، وإذا بكارل يعقد مع ناشر آخر صفقة أخرى على تأليف نفس الكتاب . وهذا هو ضمير وتصرف زعيم المذهب المادى الحديث .

وبعد : فقد أجمع عارفوه وأصدقاؤه على أنه كان يتملكه الغرور ولذلك فقد أحاط نفسه فى لندن وباريس وفى المانيا قبل كل شىء بنفر من اليهود الصغار على حظ متفاوت من القدرة على الدس والمغامرة وكراهية للدين والتمسك بالإلحاد : وصفه « هيس » أحد أصدقائه فى رسالة إلى أورباخ يقول :

إن ماركس مايزال فى ريعان الشباب ، إنه هو الذى سوف يجهز على الدين ويسدد إليه الضربة الأخيرة « ويقضى على أساليب السياسة التى نشأت فى القرون الوسطى(١) إنه لم يكن فى عمل يتولاه قط قدوة حسنة أو فرداً صالحاً لمجتمع ، فلا هو بالناشىء الطالب فى سلك الدراسة ، ولا الرجل رب الأسرة ، ولا الصديق أو الزميل فى الدعوة الأجتماعية ولا الداعية العامل على نشر مذهبه . ولا الإنسان الذى ينتمى إلى ملة أو وطن . ولا حياته بالحياة الفاضلة وإنما حياته كانت الحياة البوهيمية .

وقد اكتشف بين الوثائق السرية للدولة البروسية فى برلين وثيقة

---

(١) صـ٨٧ كارل ماركس لهنرى لوفاتر دار بيروت للنشر ١٩٧٢

لجاسوس نجح فى التسلل إلى خاصة ماركس فى لندن عام ١٨٥٣ وهذه الوثيقة تصف حياة ماركس العائلية ، ومما جاء فيها :

« ماركس متوسط القامة وله من العمر ٣٤ عاماً وقد بدأ رأسه يشتعل شيباً . أما لحيته فرسلة إرسالا . وفى عينيه الثاقبتين المشعتين شىء شيطانى

وهو رجل متحرر من قيود العادات ، وليس لديه ساعات منتظمة للنهوض والرقاد وفى أغلب الأحيان يسهر الليالى بكاملها ثم يتمدد ظهراً على أريكة ويرقد حتى المساء غير آبه بالزائرين الذين يدخلون إلى منزله ويخرجون كأنهم فى طاحون »(١)

فهل بعد ذلك يمكن أن يصلح هذا الرجل لأفكار منظمة وقيادة هادفة ؟ .

---

(١) صـ ٧٦ المرجع السابق .

الفصل الثاني

١ — الأفكار التي تأثر بها مؤسس الماركسية

(ا) ماركس وهيجل — النزعة المثالية عند هيجل

(ب) ماركس وفيرباخ

٢ — الفلسفة الماركسية فلسفة العمال

٣ — المنهج الجدلي وتكوينه التاريخي

٤ — النظرة الماركسية للعالم

٥ — كيف وصل ماركس إلى هذه الأفكار ؟

٦ — قوانين الجدل عند ماركس

٧ — نظرية المادة التاريخية

٨ — الاقتصاد الماركسي — نظرية فائض القيمة — نقد النظرية

الأفكار التى تأثر بها مؤسس الماركسية

ماركسى وهيجل :

لقد تكونت فلسفه كارل ماركسى ونظرياته وآراؤه من أفكار الفلاسفة السابقين علية ولا سيما الفيلسوف الألمانى الكبير هيجل حيث تأثر به ماركس تأثرا كبيرا وقد اعترف هذا الرجل بأنه تلميذ لهيجل عكس عليه وضع فلسفته (١) ،

ويقول « ليذين » إن كتاب رأس المال — لماركسى — لامعنى له بغير مذهب هيجل القائم على تطور التناقضى أو الثنائية (٢) ،

فكيف تأثر ماركسى بفلسفة هيجل ؟ .

فى أواخر القرن الثامن عشر حلت محل النزعة التفاؤلية المهينة التى كانت سائدة فى هذا القرن ، فلسفة تدرس قبل كل شىء مافى الحياة والفكر والمجتمع من متناقصات فى سبيل أ كتشاف الحركة (الصدورة . التقدم) التى تتم خلال هذه المظاهر وكان هيجل هو حامل لواء هذه الفلسفة ،

وعند ما انتقل ماركسى فى خريف عام سنة ١٨٣٦ إلى برلين كانت فلسفة هيجل ذات تأثير كبير وقوى على العقول آنذاك بل وكادت حكومة بروسيا أن تجعل منها مايصح أن يكون الفلسفة الرسمية للدولة .

---

(١) ص ٢١ د . محمد البهى ، العلمانية والإسلام مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) ص ١١١ الشيوعية والإنسانية للعقاد .

وكان اتصال ماركسى بفلسفة هيجل فى بادىء الأمر مقصورا على مايقع تحت يده من مقتطفات وأجزاء متناثرة ولكن زاد اتصاله بهذه الفلسفة حين انضم إلى أحد النوادى الثقافية الذى أنشأة تلامذة هيجل .

النزعة المثالية عند هيجل :

يضع هيجل فى ذروة مذهبه الفلسفى « الفكرة » والفكرة فى نظر هيجل نمط من أنماط الروح الصرف الموجود قبل الكون ، قبل الفكر البشرى يقول هيجل .

إن الفكرة تكون موجوده قبلنا ، وقبل تاريخ الفكر والحضارة وقبل تاريخ الكون، ولكنها تكون عندئذ غير واعيه وهى لاتستطيع أن تغدو واعيه ذاتها إلا فى تناقضات : إثر اصطدامها بعقبات ، وحواجز ، وإثر منازعات تعاينها ،

وماذا تفعل عندئذ ؟ .

إنها تخلق العالم والطبيعة والكون والانسان ، وتاريخه - أشياء تختلف عن الفكر الصافى المحض ، بل إنها لفى تناقض معه فالماده تناقض الروح والفكر ، وتجيبهما ، ولكن خلال هذه المناقضة - خلال جميع أنواع المتناقضات فى الطبيعه والانسان والتاريخ - تبدأ الفكرة المطلقة تعى ذاتها وهى تستبين(تعبر عن ذاتها) فى الأفكار الانسانية والعقول ولاسيما المعرفة والعلم البشرى ومحركات البحث عن الحقيقة ومحرك الانسان والتاريخ والحياة الاجتماعية والحياة المعنوية والسياسية تنحصر كلها يرى هيجل فى هذه الفكرة المطلقة والضرورة .

وجميع تناقضاتها تفسر بهذه الفكر ، والكون والطبيعه إنماهما نتيجه و تعبير

خارجى » — أو تجسيد خارجى — عن الفكرة وانحطاط يصيب الفكرة حتى تتجسد ، ثم بعد ذلك تستعيد ذاتها الأصلية وتعود إلى ذاتها حين تعى ذاتها (١) .

وهذه الفكرة أبديه أزلية وغايتها القصوى أن تعرف كل شيء أى أن تعرف نفسها لأنها كل شيء وبهذه المعرفة تتحقق الحريه المطلقة من جميع العوائق حيث تصل إلى طور من أطوار الحرية كلما وصلت إلى طور من أطوار المعرفه إلى أن تتم هذه الأطوار بتمام المعرفه وتمام الحرية وهذه الأطوار محدوده وكل طور منها ناقص يتممه طور أخر وهذا ما يسميه هيجل بقانون التناقض فكل طور من أطوار التاريخ لا يشتمل على كل كامل بل يشتمل على جزء يقابله جزء آخر وتكمن فيه جرثومة التناقض لأنه بعض وليس بكل محيط بجميع الخصائص والمزايا والأطوار .

فالشيء الموجود « الفعل » يقابله نقيض ويتألف منهما وجود أكمل لأنه يجمع مزايا الأثنين ، فهناك فعل وهناك ضد لذلك الفعل ثم يتركبان فيصبحان شيئا واحدا ثم يبدأ التناقض مرة أخرى حتى ينتهى إلى تركيب أتم من التركيب الأول وعلى هذا النمط المتتابع يتطور التاريخ وتتقدم المعرفه والحرية وهذا التناقض هو دافع الحركة ودافع التقدم والحريه إلى أن يبطل التناقض فى الأجزاء باحتوائها جميعا فى الكل لا يوجد شيء خارجه ولا يوجد من ثم شيء يناقضه فهو الحريه بغير حدود والمعرفه بغير مجهول (٢) .

وما يصدق على المعرفه الفلسفيه الخالصه يصدق كذلك على كل فرع من فروع المعرفة وعلى الأمور العلميه ، وليست أحداث التاريخ ألا مراحل

---

(١) ص ٨١ — ٨٣ كارل ماركس لهنرى لوفافر

(٢) ص ١١٢ — ١١٣ العقاد : الشيوعية والانسانيه و

انتقالية فى عمليه تطور المجتمع البشرى الدائمة من الأدنى إلى الأعلى وكل مرحلة ضروريه تبررها ظروف وقوعها ووقته(١) .

لقد قرأ ماركس هذه الأفكار التى جاء بها هيجل وتأثربها فأبقى إطار هذا المذهب وأفرغه من محتوياته ونقله من مذهب فكرى لا يرى فى الكون شيئا غير الفكره إلى مذهب مادى لايرى فيه شيئا غير المادة وسمى مذهبه بالمادية التنائية وسمى قوانينها التى تسيطر على تاريخ الأنسان بالتفسير المادى للتاريخ ، فالمادة هى كل شىء والفكرة مخلوقه من المادة والوعى الأنسانى هو أعلى ما ارتضت إليه المادة من أطوار التاريخ .

وعند ماركس أن هذه الأطوار تتناقض ويحمل كل طور منها جرثومة نقيضه ويطبقها على المجتمع الآنسانى فيقول إن الضرورات المادية فى لمجتمع هى التى تحرك أدوار التاريخ .

فيأتى كل دور منها بنقيض ماتقدمه ، ولا تزال تتعاقب نقيضا بعد نقيض حتى يأتى الدور الأخير فى المجتمع الأنسانى فيخلو من التناقض ويستولى على المجتع نظام واحد لا أضداد فيه ولما كانت الضرورات المادية تحتاج إلى إلى انتاج - بعد حالة المشاع التى كانت عامة فى المجتمعات البدائية - فالمشرفون على الإنتاج هم الذين يحكمونه ويضعون له الأخلاق والعقائد التى تكفل البقاء لسيادتهم ولن تنقضى هذه السيطرة إلا إذا انقضت دولتهم وحل مكانها أناس آخرون وهذا مايسميه كارل ماركس بحرب الطبقات .

---

(١) ص ٤٠ د . راشد البراوى : المذاهب الاشتراكية المعاصرة طبعة أولى سنة ٦٧ مكتبة الأنجلو المصرية .

وهذه النقائض المادية هى التى يعول عليها فى تفسير التاريخ .

ولقد كانت الحياة مشاعة لا ملك لأحد فيها ، ثم استولى السادة على الأرقاء وعلى وسائل الإنتاج ثم جاء من بعدهم أصحاب الأقطاعيات وأخذوا يسخرون الزراع، ثم جاء من بعدهم الطبقة البرجوازية « الطور الأول من أطوار رأس المال » ثم جاء الطور الثانى من أطواره مع تقدم الصناعة وظهور الصناعة الكبرى فى عصر البخار والتجر المخترعات الحديثة حيث تتحصر الأموال وتتركز فى أيدى قلة ويبقى الكثرة من المجتمع مسخرين محرومين لا يملكون شيئا وسوف يثور هؤلاء على المجتمع الرأسمالى الذى لاخير فيه فيقضون عليه فتتحقق بهذا غاية التاريخ الانسانى التى تبطل فيها التنافض ولا يبقى فيها غير طبقة واحدة ينتهى بعدها صراع الطبقات حيث يعود كل شيء إلى كل إنسان ويصبح شعارهم « من كل أحد حسب قدرته إلى كل أحد حسب حاجته » .

ماركسى وفيرباخ :

إذا كان ماركسى قد تأثر بفلسفة هيجل فإنه كذلك قد تأثر بمادية فيرباخ .

وإذا كانت الفلسفة المادية قديمة كما قلنا حيث وجدت كرد فعل ضد المفاهيم الميتافيزيقية للكون وظهرت من أيام الاغريق وقبل سقراط وأفلاطون فالفيلسوف ديمقريطس لا يرى فى الوجود سوى زرات تسبح فى فراغ وأن الروح نفسها ماديه مكونه من زرات كغيرها من الأشياء .

وإذا كانت المادية قد تراجعت تحت تأثير المسيحية فقد استعادت قوتها عندما وجدت حركة علمية قوية سادت كل فروع العلم .

وقد تبلورت الفلسفة المادية عند فويرباخ الذى يرى أن الوجود يسبق الوعى وأن الفكر نتاج المادة ، وفى مؤلفه - جوهر المسيحية - ينظر فوباج إلى الدين على أنه نتاج خيال الإنسان ، فالإنسان هو الذى خلق الله بخياله كقوة تعينه فى قضاء حاجاته وتحقيق الأمن له ودفع المخاطر عنه ، والإنسان يصنع الله لأنه - أى الإنسان - عندما يعجز عن الوصول إلى الفضائل والقيم المثالية إنما يتسامى بها ويخلعها عن كائن خيالى وهو بذلك يتحرف أو يتخلى عنه أحسن مافيه لمصلحة ذلك المعبود الوهمى .

ويلاحظ فويرباخ تاريخيا أن الصورة التى يرسمها الإنسان لله والصفات التى يخلعها عليه قد تغيرت بتغير المراحل التى مرت بها المدنية الإنسانية وما تميزت به كل منهما من مستوى أخلاقى وحضارى .

سار فويرباخ نحو المادية الهوجاء فالله والدين عنده ليس أى منهما أساس له الدولة وإنما أساسها الإنسان وحاجته ليس الإيمان بالله ولكن الشك فى الله يجب أن يكون العامل فى قيام الدولة ويجب أن يتوفر إيمان الناس بذواتهم لأن الإنسان لو آمن بالله فسيظل واثقا به بدلا من أن يثق بالناس والباقى لنا هو الإنسان وحده(١) .

المادية الجدلية أو (فلسفة العمال)

إن النظام الرأسمالى والفلسفة التى قام عليها من تسخير العمال واستغلال جهدهم أعطى الماركسية فرصة فى أن تتجه إلى العمال وتؤلبهم على أصحاب العمل وقد وصف « لينين » النظام الرأسمالى بقوله :

---

(١) ص ١٦٣ المذاهب والنظم الاشتراكية د . محمود البنا دار الاتحاد العربى-للطباعة والعلمانية والإسلام د . محمد البهى ص ١٩ — ٢٠ .

قام المجتمع القديم ـ الرأسمالى ـ على المبدأ التالى :

إما أن تعمل لمصلحة الغير ، وإما أن يعمل الغير لمصلحتك ، إما أن تكون عبدا وإما أن تكون مالكا للعبيد ، ولذا فإن الذين ينشأون فى مثل هذا المجتمع يرضعون من لبن أمهاتهم نفسية النخاس أو العبيد ثم يقول :

يجب علينا أن نحارب هذه الفلسفة القديمة العزيزة على قلب البرجوازية ولابد من النضال وهذا ليس شيئاً ثانويا بالنسبة للعمال بل مسألة حياة أو موت لأنهم لن يتحرروا من الاضطهاد الطبقى إلا إذا كانت لديهم فلسفة ـ فكرة ـ عن العالم تمكنهم من تغييره فعلا .

ولذلك فقد انضم العمال إلى المذاهب الماركسية من أجل تغيير المجتمع الذين هم ضحيته .

ذلك أن البرجوازية تحاول أن ينسى الناس أن سيطرتها ترتكز على استغلال قوى العمل ولذلك فهى تحتاج دائماً إلى الكذب لدوام هذا الاستغلال بينما تحتاج الطبقة المستغلة إلى الحقيقة للقضاء على هذا الاستغلال فهى فى حاجة إلى نظرة صادقة عن العالم تساعدها على إتمام مهمتها على أكمل وجه هذه النظرة إلى العالم وجها لوجه هى المادية كما أن النظرة إلى العالم وتطوره الواقعى هى الجدلية .

لأن الجدلية تقوم بدراسة القوانين التى تفسر تطور المجتمع ولذلك إذا أراد العمال أن يقهروا البرجوازية فلابد لهم من حزب ثورى مطلع على قوانين المجتمعات ولقد عبر عن تلك الفكرة كل من ماركس وزميل كفاحه انجلز فى بيان الحزب الشيوعى .

كما قال لينين (كان ماركس وانجلز فى الفلسفة حزبيين) .

ولقد سميت المادية بالجدلية لأن طريقتها فى اعتبار الظواهر الطبيعية ومنهجها فى البحث والمعرفة جدليا ، كما أن تفسيرها لظواهر الطبيعة ونظرتها إلى هذه الظواهر ماديا .

المنهج الجدلى

تصدر أفكار كارل ماركس ونظرياته الاقتصاديه والسياسية عن فلسفة معينة هى « المادية الديالكتيكية أو الجدلية » ، بحيث تكون هذه الفلسفة القاعدة الأساسية لدى ماركس وبحيث تعتبر باقى أجزاء فكره تطبيقا وترجمة عملية لها .

فنظر بانه فى التفسير المادى للتاريخ وفى صراع الطبقات وفى فائض القيمه وغير ذلك يربطها ماركس بهذا الأساس الفلسفى فى هذا المنهج الجدلى ؟

المنهج الجدلى وتكوينه التاريخى :

تنظر الجدليه إلى الأشياء والمعانى فى ترابطها بعضها البعض وما يقوم بينها من علاقة متبادلة وتأثير كل منها فى الآخر وما ينتج عن ذلك من تغير كما تنظر إليها عقد ولادتها ونموها وانحطاطها .

وتتعارض الجدليه مع الميتافيزيقا لأن الجدلية لا تقبل الفصل بين مختلف جوانب الواقع ولا تقبل كذلك أن تعزل الأضداد بعضها عن بعض كما تفعل الميتافيزيقا ذلك أن الجدلية ترى أن الأضداد لا يمكن أن يوجد بعضها دون بعض كما ترى أن كل حركة وكل تحول إنما يفسره ما ينشأ بينها من نضال فحياة الجسد مثلا هى نتيجة نضال مستمر بين قوى الحياه وقوى الموت ، وأنها انتصار نزعة الحياة من براثن الموت إذ كل عضو فى فى كل لحظه يتمثل مواد غريبة ويفرز مواد أخرى وتموت فى كل لحظة خلايا من جسده بينما تتكون أخرى فإذا بما هية هذا الجسد تتجدد فى مدة قصيرة وقد حل محلها ذرات مادية أخرى بمعنى أن كل كائن عضوى هو

دائما ذاته وليس بذاته ، حتى اذا ما تأملنا الأشياء جيدا وجدنا أن قطبي التناقض لا يمكن الفصل بينهما بالرغم من تناقضهما وأن كل منهما يتداخل في الآخر .

وهكذا شأن المجتمع أيضا وسنرى بأن نضال الأضداد يظهر في المجتمع على صورة نضال الطبقات كما أن نضال الأضداد يثير الفكر .

تكوينه التاريخي :

يعود الفضل إلى فلاسفة اليونان في البدء بتكوين الجدليه[1] .

فقد تصوروا الطبيعه ككل ، وكان هرقليط يعلم الناس أن هذا الكل يتحول ، فكان يقول : لا تدخل قط في نفس النهر مرتين ، كما يحتل نضال الأضداد عندهم مكانة كبيره ولا سيما عند أفلاطون الذى يشيرا ، إلى خصب هذا النضال إذ أن الأضداد يولد كل منهما الآخر .

ونجد عند أكبر مفكرى العصر الحديث ولا سيما ديكارت وسبينوزا أمثله رائعة على التفكير الجدلي غير أن هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١ م) الذى ظهرت فلسفة في الفتره التي تلى الثورة الفرنسية هو الذى صاغ بصورة عبقرية لأول مرة .

المنهج الجدلي :

لقد أعجب هيجل بالثورة البورجوازية التى انتصرت فى فرنسا وقضت على المجتمع الاقطاعي الذى خيل إليه أنه أبدى لا يزول ، فإذا به يقوم

---

(١) تعبر هذه الكلمة عن صراع الافكار المتناقضه .

بثورة مماثلة فى الأفكار ، فينزل الميتافيزيقا وحقائقها الخالدة من عرشها السامى ، وإذا بالحقيقة عنده ليست مجموعة من المبادىء الجاهزة بل هى عملية تاريخية ، تبدأ بالمعرفة البدائية لتنتمى بالمعرفة السامية وهى تتبع فى ذلك حركة العلم نفسه الذى لايتطور إلا إذا عمد إلى نقد نتائجه باستمرار وتجاوز هذه النتائج ، وهكذا نرى أن الدافع لكل تحول هو نضال الأضداد .

ومع ذلك كان هيجل مثاليا ، أى أن طبيعة التاريخ الانسانى بالنسبة اليه لم تكن سوى تجلى الفكرة الأزلية ، وهكذا تظل جدلية هيجل جدلية روحية صرفة .

ولقد رأى ماركس فى هذه الجدلية — المنهج العلمى الوحيد غير أنه استطاع — وهو مادى — أن يعيد الجدلية إلى مكانها الحقيقى فرفض القول بالنظرة المثالية للعالم التى ترى فى الكون المادى ثمرة للفكرة ، وأدرك أن قوانين الجدلية وهى قوانين العالم المادى ، وأنه اذا كان الفكر جدليا فلأن الناس ليسوا غرباء فى هذا العالم بل هم جزء منه .

رفض ماركس الاتجاه المثـــالى فى فلسفة هيجل واحتفظ بالمنهج والأسلوب الجدلى ولكنه جعله للمادة ، وليس الفكر الا صورة ذهنية للحقيقة المادية ، وعلى ذلك فإن ماركس يرى أنه قد صحح وضع الجدل الهيجلى بجعله يقف على قدميه بعد أن كان يقف على رأسه يقول ماركس .

(انى وجدت هذا العبقرى الكبير واقفا على رأسه فجعلته يقف على قدميه) ويقول .

(لا يختلف منهجى الجدلى فى الأساس عند منهج هيجل فقط بل هو نقيضه تماما اذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة . أما أنا

فاعتقد على العكس أن حركة الفكر ليس سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الانسان(١) وقد تقدم بيان ذلك عند الحديث عن هيجل وماركس .

النظره الماركسية للعالم

وبناء على ما تقدم نرى أن النزعه الفلسفية عند ماركس تقوم على عكس النزعة الميثالية التى تعتبر العالم تجسيدا للفكرة المطلقة والروح الشامل والوعى — على المبدأ القائل بأن العالم بطبيعته مادى وأن مختلف ظواهر الكون إنما هى جوانب مختلفة للماده فى حركتها ، وأن العلاقات والشروط المتبادلة بين الظواهر التى يكشف عنها المنهج الجدلى هى القوانين الضرورية لنمو المادة المتحركة وأن العالم ينمو حسب قوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة إلى روح شامل(٢)

ويلاحظ ستالين أن مختلف ظواهر الكون لاتحدث بفضل تدخل أرواح وقوى (لامادية) بل هى جوانب مختلفة من المادة المتحركة ، كما يشير كذلك إلى وجود ضرورة طبيعيه كامنة فى المادة وهى أساس قوانين الكون التى يقيمها المنهج الجدلى وأخيراً يشير ستالين إلى خلود العالم وخلود المادة المتحركة التى تتحول باستمرار ، ولقد كتب « لينين » يقول إن نظرية

---

(١) راجع ا : أصول الفلسفه الماركسيه ص ٣٦ ب : الاسلام والاشتراكيه لميرز احمد حسن ص١٣ ج : المذاهب والنظم الاشتراكيه د . محمود عاطف ص ١٧٠ د : انجلز لودفيج فورباخ ص ٢٣ ودراسات ، فلسفيه ص٤٤

(٢) راجع ستالين : بين النزعة المادية الجدلية والنزعه المادية التاريخية ص١٠ نقلا من كتاب أسس الفلسفة الماركسية ص١٩٠

الفيلسوف القديم هيرقليط المادية الذى كان يرى أن العالم واحد لم يخلقه إله أو إنسان ،كان وسوف يظل شعلة خالده حية تتوهج وتنطفىء حسب قوانين معينة — إنما هى عرض رائع لمبادىء النزعة المادية الجدلية .

المادة والحركة :

إن مسألة علاقات المادة بالحركة مسألة خطيرة فى تحديد كل من النزعة المثاليه والنزعة المادية .

ذلك أن النزعة المثالية تعتقد أن الحركة والنشاط والقدرة الخلاقة إنما هى من ميزات الروح فقط ، وهى ترى أن المادة عبارة عن كتلة جامدة سلبية لا صورة لها وهى بحاجة إلى ميسم الروح الذى يحييها كى تتخذ صورة معينه .

وهكذا ترى النزعة المثالية أن المادة لا يمكن أن تنتج أى شىء بنفسها فإذا ما أخذت تتحرك فإن ذلك بفضل الله أو الروح .

أما النزعة المادية : فهى تقول على العكس بأن الحركة صفة أساسية للمادة وأن المادة هى الحركة وتخيل قديما ديمريط الذرات التى تكون العالم تدفها حركة خالدة والظواهر الطبيعية إنما هى صور لحركة المادة وأن الماده لاتستطيع فقط أحداث الحركة بل تستطيع أيضا أحداث تغييرات نوعية وأنها تملك ديناميكية داخلية نشيطة وقدرة على الخلق تعتمد على وجود التناقضات داخل الأشياء ذاتها .

كيف وصل ماركس إلى هذه الأفكار ؟

أن الجواب على ذلك نجده فى مؤلفات ماركس وافكار أنجلز : إذ أن ازدهار علوم الطبيعة فى القرن الثامن عشر وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر هو الذى أدى بهما إلى القول بأن للجدلية أساسا موضوعيا .

وكان للاكتشافات الثلاثه التاليه أثر كبير فى ذلك .

أولا : اكتشاف الخلية الحية الذى كشف سر تكون الأجسام الحية وأتاح تصور الانتقال من الجسم الكيمائى إلى الجسم الحيوى وادرك نمو الكائنات الحية .

ثانياً : اكتشاف تحول الطاقة الذى أوجد فكرة تغير النوعى وأظهر مختلف القوى الفيزائية على أنها مظاهر لحركة المادة .

ثالثاً : نظرية التحول عند داروين ،فقد أظهرت هذه النظريات اعتماداً على علم الحفريات وعلم تربية الحيوان أن جميع الكائنات الحية ومنها الإنسان هى ثمرات التطور الطبيعى .

ولقد أوضحت هذه الاكتشافات كما أوضحت جميع العلوم فى ذلك العصر كفرضية لابلاس التى تفسر النظام الشمسى بأنه قد تولد من نشوء علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) التى تعيد بناء تاريخ الكرة الأرضية الطابع الجدلى فى الطبيعة على أنها وحده لكل شاسع فى صـ وره (حركة وتحول) دائمة يتطور حسب قوانين ضرورية ولا يكف عن تواليد المظاهر الجديدة .. وما النوع الإنسانى والمجتمع سوى لحظة من هذه الصيرورة الشاملة .

وعلى ذلك فقو انتهى ماركس وإنجلز إلى القول أنه يجب الاستغناء عن المنهج الميتافزيقى لفهم هذه الحقيقة الجدلية ، وذلك المنهج الذى يقضى على وحدة العالم ويجمد حركته .

فكان لابد — فى رأى ماركس — من منهج جدلى وقد أعاد هيجل الاعتبار إلى هذا المنهج ولكن لم يستطع إكتشاف الأسس الموضوعية له

لم يأت إذن ماركس وأنجلز بالمنهج الجدلى من الخارج بصورة اعتباطية بل استقياه من العلوم نفسها التى تتخذ الطبيعة موضوعا لها والطبيعة جدلية فى ذاتها .

قوانين الجدل عند ماركس :

إن مهمة الجدل هى دراسة العالم فى حركته الدائمة التى تبين تطوره وتغيره فالتطور هو الموضوع الذى يحاول الجدل الكشف عنه وإليكم قوانين الجدل عند ماركس التى يراها كافية فى الكشف عن هذا التطور .

أولا : قانون وحدة الأضداد .

بهذا القانون يعرف مصدر الحركة والقوة المحركة لتطور العالم المادى وملخص هذا القانون :

هو وجود التناقض فى الطبيعة والفكر والتنظيمات الاجتماعية فالتناقض موجود فى كل الأشياء والظواهر وهو سبب التطور . فالجديد يصارع القديم ويصرعه ويحدث بذلك التطور ولكن رغم أن الأشياء متناقضة وبالتالى تدخل فى صراع فيما بينها فإنها متكاملة وتشملها وحدة عضوية لأنها توجد فى نفس النظام أو العالم ، ولأنه لا وجود لأحدهما بدون الآخر فنفى أحداهما تستتبع نفى الآخر .

ولأن نتيجة هذا الصراع بين المتناقضات هو اتحادها فى وحدة يتحقق بها الانسجام بين المتناقضات .

ثانياً : قانون الانتقال من التغير الكمى إلى التغير الكيفى .

تخضع مختلف الظواهر لقانون التطور ، ويلاحظ هذا التطور أنه عند مرحلة معينة ، وبطريقة فجائية تتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات جوهرية أى تغيرات فى الكيف أو النوع بحيث تتغير طبيعة الشىء ويضربون المثل

لهذا التحول عادة من تأثير الحرارة على الماء . فالماء بارتفاع درجة الحرارة وانخفاضها تطرأ عليه تغيرات فى كميته ولكن عند درجة حرارة معينة تتغير حالته أى تلحق تغيرات فى النوع ، إذ يتحول إلى بخار فى درجة مائة وإلى جليد فى درجة صفر مئوية ، وتحت الضغط العادى ؛ وكذلك فى تكوين المادة يؤدى التغيير فى كمية كل نوع من الذرات الداخلية فيها عند نقطة معينة ودون تعديل فى النسبة بينها ، إلى تغيير فى نوع المادة ، وهذه التغيرات الكيفية هى تغيرات حتمية وعلى ذلك فإن عملية التطور هى عبارة عن انتقال من حالة كيفية معينة إلى حالة كيفية جديدة فى عملية صعود إلى مراحل أعلى .

فالتغير الكيفى — وليس التغير الكمى — هو الذى يحل التناقض ولكنه حل مؤقت تبدأ به حالة جديدة بتناقضاتها . ويطبق الجدل الماركسى هذا القانون على الحياة الاجتماعية ففى النظام الرأسمالى مثلا يمر الوضع الطبقى مع تطور ذلك النظام بتغيرات كمية تتمثل فى تزايد الفوارق بين الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية ، وعند نقطة معينة يحدث تطور كيفى يتمثل فى إقامة النظام الاشتراكى على أنقاض النظام الرأسمالى عن طريق ثورة العمال .

ويمكن تعميم هذه الفكرة فى تطور الحياة الاجتماعية . فالثورة التى يتم بها الانتقال النوعى أو الكيفى من نظام اقتصادى إلى آخر إنما يأتى بخلق طبقة اقتصادية جديدة تصل فى تقدمها إلى مرحلة تتحقق لها فيها السيطرة الاقتصادية .

ثالثاً قانون نفى النفى .

ومعنى ذلك أن القديم ينفيه الجديد ، وأن هذا الجديد يجد بدوره فى عملية التطور شيئاً ينفيه بحيث يعد هذا الشىء الأخير نفيا للنفى وهكذا فى حركة التطور إلى المراتب العليا ، كل مرحلة من مراحل التطور تستبعد وتنفى سابقتها وكما يحدث هذا النفى فى الطبيعة فإنه يحدث فى تاريخ الحياة الاجتماعية ، فالاقطاع ينفى نظام الرق الذى يسبقه والرأسمالية تنفى الاقطاع والاشتراكية تنفى الرأسمالية ، وبذلك فإن الاشتراكية نفى النفى ، لأنها تنفى الرأسمالية التى هى نفى الاقطاع .

على أنه يلاحظ أن عملية التطور والصراع لايؤدى إلى القضاء على النقيضين كلية وإنما تدمجهما فى تركيب أعلى دون استبعاد أحداهما تماما .

ذلك أن التناقض هو سبب التطور ، ويتم التطور بحل التناقض مع بقاء ماهو إيجابى فى المتناقضات السابقة فلا شىء يكمن فيه نقيضه ولامرحلة تحتوى بعض عناصر المرحلة السابقة عليها(١)

(١) أصول الفلسفة الماركسية ص ٦١٥ ، ١٠٧ والمذاهب والنظم الاشتراكية د. محمود البناص ١٧١ ، ١٧٣ .

نظرية المادة التاريخية

إذا كانت نظرية (الجدلية المادية السابقة تشكل أساساً) جوهرياً فى فلسفة ماركس ، فإن هذه النظرية - المادة التاريخية - تترتب عليها وتشكل جانبا هاما أيضا فى هذه الفلسفة .

فما هى هذه النظرية إذن ؟

تعنى المادة التاريخية التفسير المادى أو الاقتصادى للتاريخ عند كارل ماركس وهذه المادية التاريخية تجد أساسها الفلسفى فى النظرية السابقة (المادية الجدلية)

فالذى يسير تاريخ المجتمع ويحكم تطوره ليس قوى غيبية خارجية أو حقيقية مطلقة أو عقل مطلق ، وليس أفكارا مثالية مجردة فالأفكار والمثل تجد الخ جذورها فى أوضاع الحياة المادية للمجتمع وإنتاج النظم الاجتماعية وكذلك الأفكار والتصورات والأنتاج الروحى للشعوب إنما يتولد من نمو القوى المنتجة .

وهكذا تتوقف طبيعة البشر على الأوضاع المادية التى تجدد انتاجهم ، بحيث يختلط إنتاج الأفكار والتصورات والأدراك بالنشاط المادى وبالعلاقات المادية باعتبارها لغة الحياة الحقيقة .

لقد كان ماركس يرى أن القوى الحقيقية التى تحكم التطور التاريخى فى جميع حالاته تأتى من تحدد سلوك الأنسان وهو يتصرف متأثراً ببعض الدوافع الاقتصادية .

فالحالة الاقتصادية هى التى تحدد بصفة حاسمة النظم الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية .

هذا إلى أن التغيرات الاجتماعية التى تطرأ على المستويات الأخلاقية والثورات السياسية إن هى إلا نتائج لتغيرات فى العلاقات الاقتصادية ، وهذه بدورها تنشأ من عدم انسجام وسائل الانتاج مع طرق التوزيع ، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت النظم الاجتماعية غير متلائمة مع النظم الاقتصادية كما أدى إلى قيام نوع من التوتر الاجتماعى الذى ينتهى عادة بقيام ثورة تصحيح فى ظلها تذهب فى ظلها الأوضاع القائمة ورجع ماركس إلى التاريخ وتطوره فوجد فيه ماينهض دليلا قويا على صحة نظريته .

وجد أن التاريخ يمثل صراعا عنيفا بين الطبقات الاقتصادية ففى كل عصر نجد أن وسائل الحصول على ماديات الحياة تقسم الناس إلى طبقتين لكل طبقة منهما شعور خاص، كما أن كل نظام انتاجى (اقتصادى) قد أتاح منذ فجر الانسانية قيام طائفتين متنافرتين — المستغلين والمستغلين أى طبقتا أصحاب رءوس الأموال والعمال ومصالحهما متعارضة ومتنافرة فتاريخ الانسانية إذن هو تاريخ صراع "طبقات الاقتصادية وهذا الصراع هو الذى يحدد كل مظاهر التطور الاجتماعى وهو الذى يسبغ نتائجه على المجتمعات أشكالها ونظمها .

هذا والتاريخ يحدثنا بأن الصراع المشار إليه ينتهى دائما على صورة واحدة . هى انتصار الطبقة الأكثر عدداً والأسوأ حالا على الطبقة الغنية الأقل عددا ،

ومن مظاهر الصراع المشار إليه ذلك الكفاح الذى قام قديماً بين الأحرار والأرقاء ثم بين الأشراف والعامة ، وكذلك بين الرؤساء والعرفاء فى نظام الطوائف وقام حديثا بين الطبقة البرجوازية وبين طبقة العمال .

فلقد استأثرت الطبقة الأولى — منذ عهد الثورة الصناعية — بالثروة

والنفوذ السياسى بينما لا تملك الطبعة الثانية إلا العمل العضلى مع أنها هى التى يقوم على أكتافهم دولاب الانتاج ومع ذلك لا تملك إلا ما يحفظ عليها القوة التى تبذلها من أجل لقمة العيش .

وهذا الوضع الشاذ والحالة السيئة التى ترزح طبقة العمال تحت نيرها من شأنها أن توغد صدور هذه الطبقات المظلومة وتشعل فيها عزم النضال الذى سينتهى بانتصار طبقة العمال تبعاً لقانون التطور الاجتماعى لأنها هى الطبقة الأسوأ حالا والأواخر عددا .

فالصراع سوف يؤدى إلى نتيجة محققة وهى فناء الرأسمالية وفى هذا الصدد يقول ماركس عبارته المشهورة (الرأسمالية تنمى بذور فنائها) .

لأنه كلما تقدم النظام الرأسمالى الحاضر كلما تركزت الثروات فيزداد الأغنياء ثراء بينما يشتد بؤس الطبقة العامله وعلى هذا النحو تسير الأمور من سىء إلى أسوء حتى تقوم ثورة عنيفة تقوض النظم القائمة من أساسها .

فالرأسمالية باتجاها نحو أشباع حاجاتها تخلق فى الوقت نفسه الظروف التى تقوى جهود العمال فى اعداد أنفسهم للقيام بالعمل المباشر فى سبيل تقويض دعائم المجتمع الرأسمالى وإقامة مجتمع اشتراكى تختفى فيه مظاهر الملكية الخاصة وتتلاشى فيه الفروق الاجتماعية ومظاهر التنافس بين الأفراد والطبقات الاجتماعية فتستقيم الأمور ويسعد الجميع بعهد من الطمأنينة والرخاء والسلام وهذا ما يقصد إليه كارل ماركس عندما يقول .

إن قيام النظام الاشتراكى هو أخر مرحلة من مراحل التطور التاريخى وأخر مظهر من مظاهر الصراع الطبقى (١) .

---

(١) راجع ص ١١٥ ومابعدها كارل ماركس هنرى لوفافر وص ١٠٠ =

الأقتصاد الماركسى

اعتنق ماركسى فكرة أساسيــــة ملخصها : أن الأمراض السياسية والأجتماعية لاتعالج بالبحث النظرى المجرد ولا بالمثل الخيالية ، ولكن العلاج الحاسم لابد أن نصل أليه من تحليل طبيعه النظم الأجتماعية القائمة والوقوف على تطرر مقوماتها الأقتصادية .

وقد وجد ماركس فى النظام الرأسمالى القائم أساس الفساد لأنه قسم المجتمع إلى طبقتين متنافرتين فانفرط عقد المجتمع وساده الأضطراب وعمته الفوضى .

وسرعان ما وصل ماركس إلى مبادئه الرئيسية فى الأشتراكية وبذل جهداً كبيراً فى صياغة أسسها النظريه والتاريخية ودعا طبقة العمال إلى اعتناقها والعمل على تنفيذها عن طريق القوة ووسائل العنف ولقد شرح ماركس أفكارة وبراجه فى مؤلفات كثيرة أجدرها بالذكر مؤلفاته : نقد فلسفة هيجل القانونية ـ بؤس الفلسفة ـ المنشور الشيوعى ـ مقدمة فى نقد الأقتصاد السياسى ـ بحث فى قيمة الربح . رأس المال .

ويعتبر المنشور الشيوعى أكثر الوثائق الماركسية شيوعا وأنتشاراً حيث ترجم إلى معظم اللغات الحديثة ، وقد وضعه ماركسى وزميل كفاحة إنجلز وصدر المنشور فى لندن عام سنه ١٩٤٨ ومع أن المنشور لا يتضمن إذاعة أفكار شيوعية غير أن السر فى اختيار كلمة شيوعى كما يقول إنجلز هو

= ومابعدها : كارل ماركس ايسيا برلين وص٣١٤ : الفكر الإسلامى وصلة الاستعمار د . محمد البهى وص ١٧٤ : المذهب والنظم الاشتراكية د . محمود البنا وص ١١٧ وما بعدها : المذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب .

تميز مذهبهم عن المذاهب الأشتراكية الأخرى التى وضعها جماعة من المصلحين المعتدلين أمثال : أوين وتوربد ، ويتضمن المنشور النقط الأساسية فى اشتراكية ماركس وبرنامج العمل الذى يجب على العمال السير فى ضوئه حتى يوافقوا بين جهودهم وبين مجرى الأحداث وقدسيطرت على بحوث ماركس نزعة واضحة وهى مواجهة النظام السياسى والأقتصادى الرأسمالى (١) .

ويفترق موقف ماركس عن الذين سبقوه ممن تصدوا لدراسة الظواهر الأقتصادية .

فالأقتصاديون الكلاسيك ينطلقون من التأمل المجرد ومن مقدمات عامه يستخلصونها منه تتصلا بنزعات الأنسان وميوله الطبيعية ليقولوا بنظام طبيعى وأزلى ، فأحود النظم لديهم هو ذلك النظام الذى ينشأ تلقائيا عندما يكون الناس أحرارا فى أعمال فكرهم وفى السعى وراء تحقيق مصالحهم الذاتية وهذا يتحقق فى النظام الرأسمالى الحر !.

وإذا كان المفكرون الأشتراكيون السابقون لماركس يعارضون الرأسمالية لما رأوه فى الواقع من أزمات اقتصادية وبؤس العمال وغلبة المصالح الأنانيه ويقترحون بعض النظم الجيدة للقضاء على هذا كله ، فإن هذه النظم يبنون قواعدها على أساس من التصور والتفكير المجرد .

أما ماركس فإنه يرى على العكس من ذلك حيث يعتقد أن النظام الأحسن للجماعه إنما يتحقق تاريخيا وبالحركة والضرورية للمجتمع ويبحث لذلك عن قانون هذه الحركة ويجده فى التناقض فى كل مرحلة بين أسلوب

---

(١) ص ١١٤ المذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب طبعة أولى سنة ١٩٥٣ مطبعة لجنه البيان العربى .

الإنتاج ومايقابله من علاقات اجتماعية تستند إلى علاقات الأفراد فى العملية الإنتاجية ، وفيما يترتب عليه من تناقض بين الطبقة المسيطرة والطبقة المغلوبة على أمرها ، ومـــع تطور القوى المنتجه بتقدم العلم والفن اتتراكم المتناقضات وتبرزمنها قوى تؤدى حتما إلى إقامة نظام اجتماعى إنتاجى جديد .

فماركس يتناول إذن فى كل لحظة الوضع التاريخى ويصل بذلك إلى دراسة أسلوب الإنتاج الرأسمالى ومايتضمنه من علاقات انتاج وتبادل . ولكن ماركس لايقتصر - كما كان يفعل الكتاب الكلاسيك - على بيان كيفية سير الرأسمالية ، وإنما تمتد دراسته إلى تطورها وانقضائها ، بل إنه لايتناول من جوانبه سير النظام الرأسمالى إلا بهدف شرح كيفية تطورة وبيان المتناقضات والقوى الأجتماعيه التى ستنتهى حتما بالقضاء عيه .

وهكذا نجد أن الاقتصاد الماركسى يعد - فى تسلسل المذهب - امتدادا للمادية التاريخيه (١) . ويرتد التحليل الاقتصادى الماركسى إلى نظرياته فى القيمه وفائض القيمه ،

نظرية فائض القيمة

تعتبر هذه النظرية النقطة المركزية فى فلسفة ماركس الاقتصادية وتقوم هذه النظرية على فكرة أن العمل الانسانى هو مصدر قيم الآشياء أو على حد تعبير إنجلز . أن العمل مصدر لكل ثراء ومقياس لكل القيم (١)

---

(١) ص ١٩٩ المذاهب والنظم الاشتراكية د . محمد البنا .

(٢) ص ١٠ الماركسية تأليف فردريك انجلز ترجمه ماهر نعيم دار المعارف بمصر .

فالقيمة المتبادلة لسلعة ما تتوقف على مقدار ما بذل من عمل فى انتاجها وهذا ما يعبر عنه ماركس بأن الجهد البشرى هو القوة الوحيدة القادرة على خلق القيمة ، أى أن العمل هو الذى يخلق الثروة ، وقد ربط ماركس بين نظريته فى القيمة ونظريته فى المنفعة فهو يرى أن منفعة الشيء تتوقف على مقدار العمل اللازم له فإذا كان للشيء قيمة تبادلية فذلك لأن العمل الذى بذل فى إنتاجه جعله نافعا صالحا للاستعمال ومقياس القيمة يتوقف على مقدار العمل المطلوب للشيء ، فالشيء النافع إذن لا يكتسب قيمته إلا من العمل الإنسانى الذى استنفذ فيه ، وما دام العمل هو الذى ينتج الثروة فللعمال الحق فى أن يستولوا على كل ما ينتجه العمل ولكن الملاحظ أن العامل يأخذ أقل مما يستحقه فى خلق قيمة الأشياء ، فالرأسمالى فى النظام الاقتصادى الحاضر يشترى من العامل قوة عمله وهى كسائر السلع الأخرى تحدد قيمتها بكمية العمل اللازم لإنتاج ما يحتاج إليه العامل ليعيش عيشة الكفاف ، ثم يستخدم الرأسمالى قوة العامل التى اشتراها على هذا النحو ليحصل بها على قيمة أكبر وذلك باستغلالها أسوأ استغلال وبتشغيلها وقتا أطول — ومن الفرق بين القيمتين يحصل الرأسمالى على ربح وفير وهذا الفرق هو ما يسميه ماركس بفائض القيمة وهذا الفائض ينتج إذن من استخدام رأس المال فى توظيف العمال(١) يقول إنجلز .

فى أحوال المجتمع الحالى يجد الرأسمالى فى سوق السلع سلعة لها ميزة خاصة تنفرد بها ، هى أن استخدامها مصدر لقيمة جديدة هذه السلعة هى القوة العاملة ، فما هى قيمة هذه القيمة العاملة ؟ . . . . إن قيمة كل سلعة تقاس بمقدار العمل اللازم لانتاجها ، وتوجد القوة العاملة فى شكل العامل البشرى الذى يحتاج إلى قدر محدد من وسيلة العيش لنفسه ولأسرته يضمن

---

(١) ص ١١٦ المذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب .

استمرار القوة العاملة ، ومن ثم فإن وقت العمل اللازم لانتاج هذه الوسيلة للعيش يمثل قيمة القوة العاملة .

ولما كان الرأسمالي يدفع للعامل أجره أسبوعيا مثلا فإنه يشترى بذلك حق استخدام عمل العامل لمدة هذا الأسبوع ، ويبدأ الرأسمالي في تشغيل العامل الذي يتعين عليه أن يقدم قدرا من العمل في فترة معينة من الوقت في مقابل ما يتقاضاه من أجر أسبوعي تقدر هذه الفترة بثلاثة أيام مثلا يعيد فيها للرأسمالي القيمة الكاملة للأجر الذي دفعه إليه ومع ذلك فإنه يستمر في العمل بقية الأسبوع ، وفائض العمل هذا الذي يؤديه العامل — بالاضافة إلى الوقت الضروري اللازم لتغطيه أجره — هو مصدر فائض القيمة ، أو الربح الذي يحصل عليه رأس المـــال الذي يتضخم بصفة مستمرة(١) .

فالعامل إذن عرضة للسرقة والغش في سوق العمل في المجتمع الرأسمالي، وأنه في مركز الضعف المحزن إزاء المستغلين من أرباب الأعمال مما يضطره إلى قبول أية عروض يفرضها عليه هؤلاء فمن العسير إذن أن يتقاضى العامل قيمة عمله كاملة إذ يحصل الرأسمالي على الخدمات المحتملة الأداء من جانب العمال ، ثم يصبح في وضع يسمح بإرغام هؤلاء على الأشتغال بساعات أطول(٢) :

وقد رتب ماركس على نظريته في فائض القيمة نتائج خطيرة فقد شبه حال العمال اليوم بحالة العبيد ورقيق الأرض في الأزمان القديمة ، إذ يرى أن العمال اليوم يؤدون عملهم بدون مقابل تقريبا ، فالرأسمالي يملك الآلات

---

(١) ص ١٣ من المصدر السابق .

(٢) ص ٥٥ عشرة من أئمة الأقتصاد تأليف جوزيف ترجمه د. حسين عمر مطبعة الشرق — الألف كتاب .

والمواد الأوليه التى يدور عليهما دولاب العمل ، أما العمال فيملكون فقط القدرة على العمل وعليهم أن يبيعوها للملاك بثمن يكفى بكل صعوبه لكى يحافظوا على حياتهم وحياة أسرهم وما دام العامل لا يملك إلا عمله فليس لديه قوة الامتناع أو المساومة خشية أن يموت جوعا ، هذا إلى أن العمل شأنه فى ذلك شأن أى سلعة أخرى يخضع لظروف العرض والطلب ويتأثر بقانون التنافس الذى يرد قيمة الحاجات إلى ثمن إنتاجها ، وعلى هذا النحو قد ينتهى التنافس بين العمال برد أجورهم إلى أدنى مستوى وقد عبر (لا سال) عن هذه الظاهرة بقانون (الأجر الحديدى) .

ولعل أهم الأجزاء المؤثرة حقا فى كتابات ماركس هى تلك التى يشرح فيها جهود الرأسماليين فى أرهاق العمال واستغلالهم استغلالا دنيئا للحصول على المنافع الدنيوية ويستخلص من الحقائق التاريخية والتقارير الرسمية مظاهر البؤس والشقاء التى يرزح تحت وطأتها السواد الأعظم من الشعوب الكادحة .

ويرى أن الطريق السوى للقضاء على هذا الشقاء الإنسانى هو إلغاء النظام الرأسمالى ونظام الملكية الخاصة(١) .

---

(١) راجع ص ١١٧ المذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب وص ٢٤٥ كارل ماركس لهنرى لو فافر وص ٤٧ وما بعدها من عشرة من أئمة الأقتصاد وص ١٠ من الماركسية تأليف انجلز .

نقد نظرية فائض القيمة

لقد تبين لكثير من المفكرين فساد أهم ما قامت عليه آراء كارل ماركس فأخذوا ينقدونها ويحملون على نقط الضعف والتناقض فيها، وأشهد من حمل لواء هذه الحملة النقدية العالم الألمانى (برنشتين) فقد هاجم ماركس فى أهم ما اشتملت عليه فلسفته ولا سيما نظرياته فى فائض القيمة وتركز الانتاج والمادة التاريخية وأثبت فساد ما يذهب إليه ماركس من سيادة العوامل الاقتصادية وتحكمها فى التطور الاجتماعى وعارض تنبؤ ماركس بأن الرأسمالية تمهد للاشتراكية بفعل قوانين نموها .

وقد نحا نحو (برنشتين) طائفة من المفكرين الذين تتلمذوا على ماركس وأشهرهم (كاوتسكى ولود ترقون شتين) فقد عابا على أستاذهما اهتمامه بالناحية الاقتصادية مع أن الناحية الأخلاقية لا تقل عنها شأنا فى تكييف التطور الاجتماعى وتوجيهه .

ونددا بأسرافه فى وصف طبقة العمال بالبؤس والشقاء فى حين أن الحكومات القائمة أظهرت نوايا حسنة نحو النهوض بهذه الطبقات المهضومة ، وحققت لها قدرا غير يسير من ضروب الاصلاح .

واستبعدا أن يقوم العمال بالعمل المباشر أى بالثورة ما داموا قد لمسوا حسن النوايا الحسنة من المسئولين(١) .

إن نظرية القيمة التى يقول بها ماركس والتى تعنى أن قيمة أى سلعة

---

(١) ص ١٢٣ المذاهب السياسية د . مصطفى الخشاب .

هى فى مقدار العمل الذى يبذله العامل فى هذه السلعة — هى محض خرافة — فبناء على هذه النظرية تكون قيمة قطعة من المعدن الثمين مساوية لقيمة قطعة من المعدن الخسيس يبذل فيها نفس العمل الذى بذل فى القطعة الأولى وهذا ما لا يقول به عاقل .

إن هذه النظرية لا تبعث على الاقناع فقد أسفرت المناقشات الطويلة التى ما انفكت تدور حولها على أن الصواب كله لم يكن فى جانب واحد ، والنقطة الجوهرية تنحصر عما إذا كان العمل هو المصدر الحقيقى أو السبب الحقيقى للقيمة الاقتصادية ولنقرر منذ البدء أن النظرية لا تنطبق فى يسر وسهولة إلا إذا كان العمل هو العامل الانتاجى الوحيد وكان جميعه من نوع واحد ، فإذا لم يتحقق هذان الشرطان فلا بد من إدخال فروض إضافية ومواجهة صعوبات تحليلية قد تزيد إلى الحد الذى سرعان ما تصبح معه النظرية غير سهلة التناول(١) .

ومن المعروف من مساجلات (كادل ماركس) وزمرته ، أن الحملة على نظرية القيمه الفائضة ، كانت أقوى من المكابرة واللجاج ، وأنها زعزعت المذهب فى الآونة التى أدبر فيها إدبارته المنذرة بالموت بعد فشل الفتنة الباريسية ، فراجع دعاته إلى خطوطهم الأخيرة ووعد (كادل ماركس) غير مرة بإعادة البحث للافاضه فى مسألة القيمه الفائضه ، وتعزيزها بالأدلة من أطوار الحركة الاقتصاديه فى تلك الآونة ، ثم مات ولم ينجز وعده ، وشعر صفيه (إنجلز) بالحرج من مناوئى مذهبه فأعلن أن الرد على اعتراضات الناقدين ستظهر فى الجزء الثالث من كتاب (رأس المال) الذى عثر على مسوداته فى أوراق (ماركسى) بعد موته ،

---

(١) ص ٥٠ — ٥١ عشرة من أئمة الاقتصاد .

ثم ظهر الجزء الثالث فإذا هو يتراجع ولا يفسر ما غمض من أقواله السابقه ، وإذا به يعترف بأن بعض السلع يتبادل بقيمته الانتاجيه ، وأن جملة أثمان الانتاج تساوى جملة القيم جميعا(١) .

وأخيرا فإن ماركسى لم يخبرنا عن الطريقه التى يمكن أن يظفر بها الصانع بحقه كاملا فى مجتمع القرن التاسع عشر أو المجتمعات السابقه وكيف كان فى الامكان أن يتم تداول رأس المال مع ذلك وتبقى الأعمال وحقوق العمال ، كما لم يخبرنا ماركس كذلك عن السبيل الذى يصل العامل منه لينال حاجته بغير بخس ولا محاباه ، وكيف تدار المصانع على سنه العدل والمساواة بعد زوال رأس المال واستيلاء الأجراء على المصانع وموارد الرزق .

---

(١) ص ١٩٠ العقاد : الشيوعيه والانسانية ،

الفصل الثالث

الماركسية والحرية

يعد موضوع الحرية من أهم المواضيع التي تخصها الفلسفات السياسية المختلفة بدرجة كبيرة من اهتمامها ، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وسواء كان بطريقة صريحة أو ضمنية فموضوع الحرية يعتبر ركنا أساسيا في أية فلسفة سياسية أو اتجاه فكرى سياسى ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن نظرة فلسفة معينة للحرية تحدد نظرتها للسلطة وتصورها لتطبيقها كما يترتب عليها أيضا تصور هذه الفلسفة للدولة ووظيفتها .

وقصارى القول فإن نظرة الفلسفة السياسة لموضوع الحرية هى التى ستحدد شكل التنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الذى يتبنى هذه الفلسفة ويعمل على تطبيقها .

ولا شك أن الحرية هى أثمن شىء عند الناس وفى الحياة وهذه حقيقة قررها الفلاسفة وتغنى بها الشعراء بمختلف أساليبهم ، وألوانهم :

وهى حقيقة سجلتها الوثائق الدستورية ، بعد أن استخلصتها دماء غالية وأرواح عزيزة فى كفاح ما أقدسه من كفاح ! !

فما موقف الماركسية إذن من هذه الحرية ؟

* * *

موقف الفلسفة الماركسية من الحرية

يقوم التصور الماركسي للحرية على افتراضات أساسية تكاد تصدر كلها عن فكرة واحدة وهي إن النظام الاجتماعي هو الذي يهيمن على كافة النظم والروابط والحريات ، ويترتب على ذلك ألا يكون للسلطة السياسية أو للنظم القانونية أو للحريات وجود خاص مستقل عن النظام الاجتماعي ، وإنما هي كلها مجرد أدوات مسخرة للمحافظة عليه وتدعيمه بحيث تكاد كافة العلاقات . والنظم السياسية في المجتمع أن تتشكل وفقا للنظام الاجتماعي .

فالماركسية ترى أن السلطة المهيمنة فعلا على أي مجتمع ليست هي السلطة السياسية وإنما هي السلطة الاجتماعية التي تترتب على احتكار طبقة واحدة لوسائل الإنتاج وامتلاكها ، وذلك لأن الماركسية تنظر للسلطة على أنها اقتصادية وليست سياسية ، وأن السلطة السياسية هي مجرد نتيجة للسيطرة الاقتصادية لا تقوم بذاتها أو توجه العلاقات الاجتماعية وإنما هي تخضع لمالكي وسائل الإنتاج .

ويترتب على ذلك أن الحرية — عند الماركسيين — لن تتحقق إلا بإنهيار السيطرة الاجتماعية التي تنبعث من نظام اجتماعي طبقي تسيطر فية طبقة على الطبقات الأخرى وتقوم فيه الدولة والقانون كسلطة قهر سياسة في يد الطبقة المالكة ومن هنا فإن الفكر الماركسي يربط بين نظام اجتماعي معين وبين الحرية فيرى أنه لا حرية إلا في ظل النظام الشيوعي الذي تلغى فيه الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج فتختفي نتيجة لهذا الإلغاء الطبقات وأدوات القمع وهي الدولة والقوانين التي لم تنشأ إلا نتيجة لانقسام الطبقات لغرض السيطرة الاجتماعية الطبقيه ، وعندئذ تغدو إدارة شئون الجماعه عملية لا تنطوي على

إكراه أو سيطرة ففكرة الحرية إذن فى الفلسفة الماركسيه فى ضوء نظريتها فى الدولة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبقة وهى لذلك نرى أن الحرية بالمعنى الصحيح لا تتحقق فى نظام طبقى لأن مثل هذا النظام يستتبع قيام الدولة كأداة إكراه فى يد الطبقة المالكة ضد الطبقة المجردة من الملكية وما يتبع ذلك من الظلم والاستغلال .

ولذلك تصور الحرية الماركسية على أنها انتفاء السيطرة الاقتصادية الطبقية ويكون ذلك بتملك المجتمع كل وسائل الإنتاج وبالتالى سقوط المجتمع الطبقى بأسره(١) .

النقـــد :

إن الحريه تقوم فى الفكر الماركسى على فكرة إلغاء الطبقات ولكن هذه الفكرة التى يتغنى بها الشيوعيون ما هى إلا أسطورة فقط وخرافة لم تحدث قط ولا يمكن أن تحدث فى يوم من الأيام وذلك لسبب بسيط ، وهو أنها مخالفة لطبائع الأشياء ، وما دام هناك تفاوت بين الناس فى القدرات والملكات ، فكيف يمكن أن يسوى بينهم ، فى الأقدار ، والدرجات والطبقات .

فاختلاف الطبقات مسألة باقية ودورة خالدة وفى روسيا نفسها ، قد تلاشت الطبقات ، ولكن لتأخذ طبقات أخرى فى الظهور من جديد .

ومن المعروف والواضح الآن أن الحرية فى المجتمع الشيوعى لاتكون

---

(١) ص٣٠ ، ٣١ الحرية وتعدد الأحزاب فى فكر الاشتراكية الديمقراطية وحيد محمد وآخر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨

إلا لأعضاء الحزب الشيوعى فقط الذى لا يسمح بقيام حزب آخر بجواره وزيادة على ذلك فإن الحزب ليس مفتوحا أمام جميع المواطنين ولكنه مقصور على أولئك الذين يعتبرهم الحزب أكثر ملاءمة له وتقوم جميع الأشكال الدستورية على أساس حكومة الأقلية التى تختار نفسها وتحتكر السلطة(١) .

ومن هنا فإن السيطرة السياسية فى المجتمع الشيوعى تصبح فى أيدى قلة من الأفراد الذين انتخبهم الحزب الشيوعى . ومثل هذا النظام للحكم يقضى على الديمقراطية الحقيقية :

ولذلك فإن الحرية فى المجتمع الشيوعى غير قائمة إلا بالنسبة لفئة محدودة من الشعب السوفيتى ، أما بقية الأفراد فإنهم يعيشون داخل نظام حديدى لا يتيح لها الحق فى القول أو الاجتماع او الكتابة أو الاحتجاج بأى صورة من الصور على أى نوع من أنواع الظلم ومن يعترض على ذلك فإن هناك مجاهل سيبيريا أو المصحات النفسية يلقى فيها بل إنه يحرم على الأضرار حق الإضراب الذى يتاح فى المجتمعات الرأسماليه من أجل تحقيق مصالح المضربين ومن ثم فقد تحول بقية أفراد الشعب إلى جيش من العاملين فى خدمه الحزب الشيوعى ولتحقيق امتيازاته بحيث اطلق على هذا النظام بحق إسم النظام الحديدى . نظام الخضوع والكتب لأى معارضه والانقياد الأعمى للأوامر بدون مناقشه(٢) .

إن طراز الحكم فى البلاد الشيوعيه فردى أو طائفى يفرض نفسه على

---

(١) ص٣٧١ نظم الحكم الحديثه تأليف ميشيل ستيوارت ترجمه أحمد كامل الألف كتاب (٤٢٢) الادارة العامه للثقافه .

(٢) ص١١٦ المجتمع الاسلامى والمجتمع الشيوعى د . زيدان عبد الباقى .

كل شيء ولا يسمح بمعارضه أو تذمر وإن أسلوب العيش فى ظل هذا النظام يجعل الطعام اليومى للأفراد والأسر مارا من تحت يد الحاكم ومن ثم فلا مجال للأفلات من قبضته .

ولم تعرف الدنيا فى تاريخها الماضى ولن تعرف فى تاريخها المقبل حكما ممدود الرهبة مشدود الوثائق يحول البلاد إلى سجن كبير ويحول أهلها إلى قطعان مسيرة مثل ما عرف فى الأمم الشيوعيه(١) .

ومن المقطوع به أن الشيوعيه فى أى بلد وفى أى زمان لا يمكن أن تصل إلى الحكم عن طريق انتخاب شعبى حر والحكم الشيوعى يعتمد فى الداخل على شبكة من الجواسيس تحصى على الناس أنفاسهم وتكاد تطلعه على خطرات قلوبهم كما يعتمد على سلطان مطلق فى الخفض والرفع والحياة والموت وأفراد الشعب غير راضين عن هذا كله ذلكم أن الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم فى ظلها مكفولة نامية ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة ومصونة .

فإذا نظر الانسان فرأى الحكم الشيوعى قد ضيق عيشه وأهان دينه وصادر حريته ، فما الذى يحمله على الرضا بذلك الحكم المشئوم ؟

يقول (فكتور كرافتشنكو الشيوعى الروسى بعد أن عاد من المزارع الجماعية وتشاهد ما يعانيه فلاحوها من بأساء وضراء .

فالمفازع التى شاهدتها فى الريف تركت فى نفسى جروحا هيهات أن تندمل وبدأت فى طوية نفسى فكرة أن أعتزل الحزب، الذى يقع كل من التحق به فى الفخ إلى الأبد ولكن ليس فى مقدور إنسان أن يترك الحزب حين يشاء

---

(١) ص ٦١ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر : الشيخ محمد الغزالى .

خوفا أن يزج به فى معسكرات الاعتقال أو ما هو شر من ذلك وبالا(١).

ويقول الرئيس المصرى السابق جمال عبد الناصر وهو يقدم لكتاب حقيقة الشيوعية .

إن الشيوعية حين أصبحت نظاما للحكم انقلبت إلى شىء آخر غير ما كان يأمله دعاتها ، وما أكثر النظريات التى تفتن وتخدع حتى إذا دخلت فى دور التطبيق العملى انحسر عنها لثامها وأسفرت عن حقائقها الأليمة كل ما كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات فى جهاز الإنتاج العام وكانوا بشرا ذو إرادة فقد كفروا بالدين لأن الدين فى عرف الشيوعية خرافة ولقد كفروا بالفرد لأن الفرد فى دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده وإنما الكيان للدولة .

وكفروا بالحرية لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا إرادة

وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة ، لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم يتربع على قمته فرد ويحتشد ملايين الشعب فى القاعدة، ألا ما أبعد واقع الشيوعية عن دعوة دعاتها(٢) .

---

(١) ص ٦٩ ، ٧٠ من المصدر السابق بتصرف :

(٢) ص ٥ حقيقة الشيوعية سلسلة اخترنا لك دار المعارف بمصر .

الحرية فى الإسلام

فى الصفحات السابقة تناولنا مسألة الحرية من وجهة نظر الماركسية وسوف نزن — هنا — هذه الحرية بميزان الإسلام أو بعبارة أخرى سوف نضع أمام حضراتكم تصور الإسلام للحرية على أن نترك لكم حرية الحكم لها أو عليها ، لأننا فى ثقة كاملة وقناعة تامة أن الدين الذى نزل به وحى السماء ستكون له الغلبة والنصر فى كل ميدان فكرى أو عقائدى ولأن الإسلام ينظر إلى الحرية على أنها تعادل الحياة ومن هنا فإن سلب هذه الحرية إنما هو سلب لأهم مقومات الحياة والحياة بغير حرية أشبه بالموت بل هى فى الحقيقة الموت الأدبى وسلب حرية الفرد خروج به عن حدود إنسانيته ونزول به إلى مستوى الحيوان الأعجم .

وإذا كانت حقيقة الأنسانية هى الحرية فإن الإسلام يعمق مشاعر الحرية فى مسالك النفس والعقل وفى أغوار الفرد والمجموع وفى جذور الأمة والدولة .

إن الإسلام يريد أن تكون النفس الانسانية حرة كريمة عزيزة ولذلك فإنه يؤكد هذه الحرية والعزة والكرامة أيما تأكيد .

يؤكدها فى قصة خلق الانسان أصلا فإن فيه من روح الله مالا ينبغى أن يذل أو يموت بل يستحق — والأمر كذلك — الأجلال والتكريم والاحترام والتقدير .

(فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فإذا ما هبط هذا الانسان إلى الأرض أكد الله مكانه فى الكون بين المخلوقات (لقد خلقنا

لانسان فى أحسن تقويم)[١] (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[٢] .

وينظر الإسلام للانسان على أنه أمة بل عالم بأسره بل الانسانية كلها فى قيمته (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)[٣] فإلى هذه الدرجة تبلغ قيمة الفرد وقيمة كرامته وأمنه وجميع الأنجازات الصناعية والتكنولوجية لا تعدل قتل إنسان ظلما ومن هنا فإن شرط الحكم الأمثل فى إحترام حرية الفرد وأمنه وسلامته لا أن يلقى به فى مجاهد سيبريا أو فى أعماق السجون لرأى له لا يتفق مع هوى السلطة الحاكمة .

والحرية فى الإسلام هى حرية التحرر من قيود الوثنية وإستعباد الانسان للإنسان وهى ضد العبودية فى مختلف صورها وشتى أنواعها ؛ إنها الحرية فى العقيدة (لا إكراه فى الدين)[٤] .

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (بل الانسان على نفسه بصيرة).

وعلى أساس هذه الأصول الكبرى عرض الاسلام نفسه على الناس فدعا بالحكمة والموعظة الحسنة وجادل بالتى هى أحسن – ولم يدع طبقة العمال للثورة والعنف كما فعلت الماركسية - بل لقد نفى الاسلام أن يكون الالزام والأرغام طريقة لسوق عقائده إلى القلوب (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

---

(١) التين : ٤
(٢) الأسراء : ٧٠
(٣) المائدة : ٣٢
(٤) ألبقرة : ٢٥٦

وإذا كان الاسلام لا يجبر إنسانا على إعتناق دين معين فإنه كذلك لا يعترض عند إنتقاله من دين إلى دين : فقد روى عن على رضى الله عنه أنه قد رفع إليه أثناء خلافته رجلان قد تزندقا أحدهما يهودى والآخر نصرانى فقال على (دعوه يتحول من دين إلى دين) وذلك إيمانا منه بأن من حق كل شخص أن يختار ما يشاء من الأديان أو المذاهب(١) .

بل إن الإسلام ليصل إلى الغاية فى تقرير الحرية حتى لا يبقى الانسان عبدا لشهواته وأهوائه أو عبدا لغير الله فلا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق ويأنف أن يكون عبدا لانسان مثله فلا يقبل الذل أو يرضى بالهوان من إنسان مهما كان شأنه أو منزلته أو وضعه ولم يكن هذا فى الاسلام قواعد نظرية فقط وإنما حرص دعاة المجتمع الإسلامى إلى تطبيق هذه القواعد لتمكين جذور الحرية بصورة تطبيقية ويتضح ذلك جليا فى موقف أمير المؤمنين الفاروق عمر رضى الله عنه - من شابين أحدهما مصرى والآخر من أبناء عمرو بن العاص وإلى مصر يومذاك - كانا يتسابقان فتغلب الشاب المصرى على بن عمرو فما كان من ابن عمرو إلا أن ضرب الشاب المصرى بالسوط : فأقسم المصرى أن يرفع شكواه للفاروق ، ولم يكترث ابن عمرو بذلك التهديد بل قال له (أذهب فلن ينالنى الضرر من شكواك فأنا ابن الأكرمين) وسرعان ما ذهب المصرى إلى المدينة وقدم شكواه لخليفة المسلمين الذى استدعى عمرو وإبنه على عجل .

وفى حرية تامة قال الشاب - والجميع أمام عمر سواء - يا أمير المؤمنين إن هذا الشاب - وأشار إلى ابن عمرو ضربنى ظلما ولما توعدته بأن أشكوه إليه قال أذهب فأنا ابن الأكرمين فنظر عمر إلى ابن العاص وولده وقال

---

(١) ص ٣٠ - ٣١ العلاقات الدولية فى الفقه الاسلامى دكتور محمد مصطفى الحسين ،

قولة حق أصبحت مثلا لم تسمع الانسانية لها نظيراً (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ثم نظر الخليفة إلى الشاب المصرى بعد أن أعطاه عصاته (درته) قائلا اضرب بها ابن الأكرمين ويقال بأن الفاروق أضاف بل اضرب بها عمرو بن العاص نفسه ذلك لأن ابنه إستند إلى جاه أبيه وسلطانه ولولا صفح الشاب المصرى لوقع السوط على ظهر أشهر ولاة الدولة الاسلامية فى فجر نشأتها جزاء إستغلال واحد من أبنائه لنفوذ أبيه فى إيذاء الآخرين(١) ذلكم لأن الإسلام لا يفرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير والأمير والحقير والأبيض والأسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ولقد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الاسلام فى حرية الفكر وكيف أطلق العقل الأنسانى من قيوده ودفعه إلى الخروج من آثار الوثنية يقول (بارتلمى سانتهلير) .

(إن الاسلام قد أحدث رقيا عظيما جداً فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ثم إنه بتحريمه الصور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الانسانى من وثنية القرون الوسطى واضطر العالم لأن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن الله

---

(١) أنظر ص ٩٩ - ١٠٠ أسس المجتمع الاسلامى والمجتمع الشيوعى وص ١٥٧ الدين فى موقف الدفاع فتحى عثمان وص ٦٤ وما بعدها مشكلات الفكر المعاصر أنور الجندى وص ١٩ الماركسية والاسلام مصطفى محمود وص ٣١ العلاقات الدولية دكتور محمد مصطفى الحسين وص ١٢٨ فلسفة الأخلاق-أبو بكر ذكرى .

خالقه في صميم روحه] وأشار جوستاف لوبون فى مقارنة بين الإسلام وبين غيره فقال .

[إن الإسلام هو الذى علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقد كان يظن أنهما لا يجتمعا] ولقد كان مفهوم حرية الكلمة وحرية العقيدة وحرية الفكر فى الإسلام واضحاً صريحاً . لم يقبل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق أو التحرر من القيم أو اتهام الموروثات بالزيف ولكن دعا إلى البرهان والعقل لتحرر الإنسان أولا من رق التقليد الأعمى ورباه على حرية الفكر واستقلال الإرادة وشجاعة الرأى حتى تصل إلى أن تقف إمرأة فى وجه عمر — عندما خطب فى الناس موجهاً لهم ألا يغالوا فى مهور النساء — وتقول له ياعمر : أيعطينا الله وتمنعنا أنت وقرأت قول الله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً)(١) فإذا عمر يقول أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ومن هنا فإن حرية الإسلام الفكرية تتقيد بالحق والدليل وتقوم على قواعد النظر والاستدلال بعيداً عن الأهواء والأغراض والأوهام فهل شهدت الإنسانية فى تاريخها الطويل حرية تدانى حرية الإسلام ؟

الماركسية والدين :

بين الماركسية والدين عداوة شديدة وحرب لا هوادة فيها ولامهادنة ، وهذا أمر طبيعى ، فإن الماركسية نظام مادى يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل مايقع فى التاريخ من حركات فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية ، ولامرجع له غيرها ، ومادامت الأسباب الاقتصادية

---

(١) النساء : ٢٠

— دون غيرها — هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصايرهم بقدرة وإرادة .

والدين عند الماركسين أصدق مثال على أن الأفكار إنعكاس للواقع ، فالله كفكرة هى ثمرة وضع الناس فى المجتمع القديم .

يقوله إنجلز : إن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريباً أمام الطبيعة المعادية التى كانوا لا يفهمونها وهى محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذى لا يفهمونه ، والذى كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية .

وهكذا كانت الآلهة وهى الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع انعكاساً ذاتياً لعجز الناس الموضوعى أمام الطبيعة والمجتمع .

وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الدينية الوهمى (الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ثم بوجود إله واحد) ومع ذلك فطالما استمر استغلال الإنسان للانسان ، استمرت الظروف الموضوعية التى تحمل على الاعتقاد بوجود كائن فوق البشر يوزع السعادة والشقاء على الناس أو كما يقولون (الإنسان يرجو ويأمل والله يحكم ويقرر) .

ولذا كان الفلاح فى روسيا القديمة وقد أرهقه الفقر وفقد كل أمل بالمستقبل يستسلم للارادة الالهية .

ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت فى يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج ومكنته من الطبيعة والسيطرة عليها فوجدت حينئذ الظروف الموضوعية لتنمحى عن وعى الناس الأفكار الدينية التى ولدتها ظروف موضوعية أخرى [1] .

---

(١) ص ٢٩٦ أصول الفلسفة الماركسية .

فليس الدين — عند الماركسين — إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع .

ومن واجب الماركسيين — لذلك — أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويتبرءوا من كل أثاره ومع إنكارهم للدين ينكروا معه الآله الخالق المدبر لهذا العالم .

يقول « ماركس » :

(لا إله والحياة مادة) .

ويقول (الدين أفيون الشعوب ويجب أن يزول) .

ويقول « لينين » .

(نحن لا نؤمن بوجود إله) .

ويقول (إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازية لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالا)(٢) .

ويقول : (ليس صحيحاً أن الله هو الذى ينظم الأكوان ، إنما الصحيح إن الله فكرة خرافية ، إختلقها الإنسان ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز)(٢) .

---

(١) ص ٧٧ الإسلام والشيوعية د عبد الحليم محمود ، دار التراث العربى
(٢) ص ١٥ حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام — فتحى يكن — مؤسسة الرسالة .

ولقد جاء فى خطاب ألقاه « لينين » فى المؤتمر الروسى عام ١٩٢٠ (أن تهذيب الشباب وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية ، ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لا نؤمن بالله) .

ويقول أيضاً [أن كل فكرة دينية وكل معتقد بالله ، لا بل إن مجرد التفكير بالله دعامة كامنة فى النفس » .

وقد إذاعت محطة إذاعة موسكو فى نيسان سنة ١٩٥٨ ما نصه [إن جميع الديانات متشابهة من حيث أنها كلها باطلة كما أن وجود الميول والاتجاهات المختلفة جعل الواحدة منها تطرد الأخرى] .

كما نشرت صحيفة تركمانسكايا اسكرا فى أول كانون الأول عام سنة ١٩٥٨ [أن العقيدة الدينية الإسلامية هى القوة المظلمة التى لاتزال تفسدالعقول وحياة الشعوب وتعيق النمو وتقف كأى حاجز فى طريق السعاده والنور والمعرفة . وهذا وإن الطقوس الدينية لا تزال لا صقه ثابته ، كما أن الديانه لم تترقف عن كونها مادة الأفيون لدى بعض الناس] (١) .

كذلك نشرت صحيفة العلم الأحمر بتاريخ ١ آذار سنة ١٩٥٩ [من الطبيعى أن الصراع بين الألحاد والايمان بالله لم ينته بعد . ولا بد من توجيه الجماهير نحو استئصال جذور الايمان بالخرافات والجن والآلهة بصورة أعمق مما حدث حتى الان .

ويقول أحد الشيوعين فى تقديمه لكتاب لينين عن الدين [الالحاد جزء طبيعى من الماركسية لا ينفصل عنها] وفى برنامج المؤتمر السادس الدولى

---

(١) انظر ص ١٦ من المرجع السابق .

الشيوعى الذى عقد سنة ١٩٤٨ ما يأتى .

[الحرب ضد الدين — أفيون الشعوب — تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هــذه الحرب بأصرار وبطريقة منظمة ، وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بدعاية ضد الدين وتنظيم التربية على أساس التصور المادى للدنيا] .

ويقول « لينين » فى فصل له عن الاشتراكية والدين .

[الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الاخر .

ويستمر لينين على هذه النغمة فيقول .

قال ماركس إن الدين هو أفيوم الفقراء ، وهذا حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها والكنائس وكل أنواع المنظمات الدينية آله ارد الفعل البورجوازى الذى يستهدف الاستغلال بتخدير الطبقة العاملة .

وفى كتاب أرسله لنيين إلى الكاتب الروسى « ماكسيم جوركى » يقول : [إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والالهة لا يبحث عنها وإنما تخلق (١) .

إن الماركسية ترى أن الديانه لما كانت تتولد من الجهل فإنها تحل محل التفسيرات

(١) انظر ص ١٩١ وما بعدها من كتاب حقيقة الشيوعية .

العلمية ، تفسيرات خيالية فتعمل بذلك على ستر الواقع واستدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر ، ولهذا كان الرجل المتدين منافرا لمبادىء العلم التي هي عمل الشيطان لأنه حريص على أوامه .

وتستخدم الطبقات المستغلة هذه الخاصة لاهتمامها باخفاء استغلالها عن أعين الطبقات الكادحة . فهي بحاجة إلى سلبية هـــذه الطبقات وجمودها كي يستمر اضطهادها ، كما أنها بحاجة لخضوعها وإيمانها بالقضاء المحتوم هذا من ناحية ومن ناحية ثانية يجب توجيه أمل الجماهير بالسعادة نحو العالم الاخر ، وهكذا يعرض الأمل والعزاء بدخول الجنة على أنها تعويض عما تبذله الطبقات الشعبية من تضحيات على الأرض فيتحول الاعتقاد بخلود النفس الذي كان ينظر إليه في القدم على أنه مصيبة مرهقة إلى أمل بالخلاص في الاخرة (١) نخلص من هذا كله إلى أن ماركس لا يعترف بالدين بل ويهاجمه فهو من ناحية ينتقد فيه المفاهيم اللاعلمية والغيبيات والأوهام ، وإذا كان العلم يقوم على الملاحظة والتجربة ويساعد على فهم القوانين الموضوعية لتطور الطبيعة فإن الدين على العكس يقوم على خيالات وتفسيرات غيبية ليست في متناول الانسان ابعدها عن العلم .

ثم يهاجم الدين من ناحية أخرى لما في المبادىء الدينية — حسب رأيه — من تبرير للمظالم الإجتماعية وتضليل الناس .

ذلك أن الإنسان يتسامى إلى موجود وهمي خلقه خياله الأسطوري ويتخلى بذلك في رأيه عن مطالبه الجوهرية في الحياة الدنيا ، وفي ذلك انحراف للانسان .

فماركس يرد هذا الأنحراف إلى الأغراق في الوهم الذي خلقه الإنسان

---

(١) ص ٢٠٨ ج ١ من أصول الفلسفة الماركسية .

والذى يعتمد به عن المنعة الحالية والواقع الدنيوى المادى، والدين فى هذه الحالة أفيون الشعوب إذا يعنى السلبية بتخدير الناس ومحاولة اقناعهم بالصبر وتحمل الظلم والشقاء على الأرض انتظارا للمثوبة فى الآخرة، ويدعوهم إلى الزهد فى الحياة الناعمة خشية عذاب النار [1] .

وإذا كان الإنسان - فى نظر الشيوعية - قد خلق من المادة وفيها يفنى فلا حاجة - والأحد كذلك - إلى الدين بل إن الدين فى نظر الماركسيين هو [أفيوم الشعوب] أى هو المادة التى إذا تناولها الإنسان غاب عن الوعى بحياته المادية التى يحياها ، والماركسية - كما يدعى انصارها - جاءت لتخلص الناس من تلك الغيبيات .

وهكذا نرى الماركسيين يتجاهلون أن الدين ظاهرة إجتماعية لم يخل منها مجتمع من المجتمعات مهما كان شكله ودرجة تعقيده أو تطوره من الناحية الإجتماعية والحضرية حتى أن الإنسان يوصف فى علم الاجتماع بأنه [حيوان متدين] حيث لم يعش إنسان فوق تلك الأرض وكان بغير دين ، فكما أن الإجتماع الإنسانى ضرورة للانسان ، كذلك الدين ضرورة قصوى لكل إنسان ، فما لا شك فيه أن الإنسان كلما تدين كلما عاش حياة آمنة مطمئنة ، وكلما قل تدينه ، كلما امتلأت حياته بالقلق والخوف والإكتئاب وعـــدم الأمنة [2] .

---

(١) ص ١٦٣ - ١٦٤ : المذاهب والنظم الاشتراكية د . محمود عاطف البنا طبعة ثانية دار الإتحاد العربى للطباعة .

(٢) ص ٢٥ أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى دراسة مقارنة د . زيدان عبد الباقى .

موقف الماركسية من الاسلام

إذا كانت الماركسية تقف من جميع الأديان هذا الموقف العدائى الغريب فإنها تقف من الإسلام على وجه خاص موقفاً أشد عداوة وأكثر غرابة وأكبر ضراوة ، وذلك لأنها تجد فى تعاليمه السماوية الخالدة الصخرة الصامدة التى تتحطم عليها كل موجات المد الماركسى ولأنها تعلم أن الحكم الإسلامى يسير فى عكس الاتجاه الشيوعى تماماً ، فإذا كان الالحاد جزءاً من الماركسية فإن الايمان بالله فى الإسلام هو الأساس الأول والقاعدة العريضة التى تشيد عليها الايمان بالكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والتى تقام عليها أسس الاخلاق الفاضلة التى جاء بها أنبياء السماء .

وإذا كان الحاكم الشيوعى هو الدكتاتور الأحمر الذى يعد على شعبه حركاته وسكناته ويعمل على نشر الالحاد فإن الحاكم المسلم رجل يؤمن بالله ويغرس الايمان فى المجتمع يصلى لنفسه ويؤم الناس فى الصلاة ويخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين ويعمل على وصولها إلى مستحقيها .

يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر فى أرجاء مجتمعه ثم أن الإسلام عقيدة فى القلب ، وقانون فى الحكم ، وقواعد فى الأخلاق ، ونظام فى المجتمع ، ورباط عام بين أتباعه وتقاليده تنظم البيت والشارع وتستغرق العمر من المهد إلى اللحد .

وقد فصل كتاب الإسلام — القرآن الكريم — والرسول الذى جاء به كيف يحيا المرء لنفسه ولأسرته ولمجتمعه ولأمته بل وللانسانية جمعاء ويعمل طوال حياته لربه أملا فى رضاه وطمعاً فى مثوبته وخوفاً من عقابه وهربه من ناره .

ولذلك فقد رأت الماركسية فى الإسلام عدوها الأول والأكبر ومن ثم فقد شنت عليه حرباً شعواء لا هوادة فيها وقام كثير من مفكرى الشيوعية وحملة الأقلام فيها ووسائل الاعلام بها بتنظيم حملة تشويه للعقيدة الاسلامية فظهرت الكتب والمقالات التى تتعرض للاسلام بالتشويه ولعقيدته بالتجريح وقامت وزارة الثقافه بالاتحاد السوفيتى بنشر العديد من النشرات والمجلات التى تتهجم على الاسلام وتقطر سطورها حقداً وكرها للاسلام والمسلمين وهاهى مجلة الدولة والقانون السوفييية فى عددها الصادر فى كانون الثانى سنة ١٩٥٠ تقول :

[يجب نبذ العقيدة الاسلاميه لأنها عقيدة قديمة بالية محشوة بالأساطير الفارغه ، وقد تمكنا من القضاء على هذه العقيدة وإستئصالها من الوجود ، ولم يبق من أتباعها إلا قلة هم فى طريق التصفية والاضمحلال ومساجدهم فى طريق الزوال ، فمن سبعة آلاف مسجد فى الماضى لا يوجد اليوم سوى ألف واحد وقد منعنا أخيراً المسلمين من الحج إلى مكه ونحن دائبون على تثقيف المسلمين بالثقافه الماركسية بحيث لا يؤمنون بالخرافات والأساطير الاسلامية[1] .

بل لقد وصل الأمر بالشيوعيين إلى السخرية من القرآن الكريم وعدة من الهراء واللغو وأنه تاريخ يخدم الطبقات الاقطاعية ويدعم الاستغلال ولقد جاء فى المجلد التاسع والعشرين من الموسوعة السوفيتية[2] .

[القرآن هو الكتاب المقدس الأساسى للاسلام وهو عبارة عن مجموعة من المواد الدينية والعقائدية والشرعية وقد استخدمته الطبقات الاستغلالية وعلماء الدين الاسلامى الرجعيون كسلاح لخديعة الجماهير الكادحة] .

---

(١) كتاب الجنة الحمراء ص ٣٧ نقلا عن مذكرة د.

(٢) ص ٥٤٧ .

وإذا كان الماركسيون قد وصل بهم الأمر – كما قلنا – إلى هذه السخرية بالقرآن الكريم فانه قد وصل بهم الأمر كذلك إن إنكار من نزل عليه القرآن الكريم بل وإلى إنكار من أنزل القرآن الكريم إنهم يزعمون أن محمد رسول الاسلام خرافة تاريخيه (مجرد خرافة) وشخصية خيالية كونتها الخرافات والشعوذه والأساطير الاسلامية ، ولقد جاء فى الموسوعة السوفيتية المطبوعة فى موسكو[١] .

[قد يمكن أن يكون لمحمد وجود تاريخى ولكن الخرافات قد عملت عملها فى تكوين هذه الشخصية وقلب حقيقتها قلبا تاما[٢] .

ولقد كتب سمير نوف عضو المجمع العلمى ورئيس الدراسات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى فى كتابه [تاريخ الاسلام فى روسيا] يقول :

إن المعلومات الأولية التى وصلتنا عن محمد سواء عن طريق المسلمين أو عن طريق البيزنطيين لا ترقى إلى أكثر من نهاية القرن الأول أو بدء القرن الثانى الهجرى ، لأن القرآن لا يحوى معلومات راهنة عن حياة محمد ، وهكذا فان وجود محمد أمر مشكوك فيه تاريخياً ، وليست قصة محمد إلا خرافة ، وما الهجرة إلا تلك الخرافة التقليدية التى تروى فرار الأنبياء وهى تشبه فرار بوذا وموسى وعيسى وليست قصة الانتقال العلوى والمعراج إلا ترديد للخرافة التقليدية التى تروى عن الساحر السائح فى العالم الآخر وخرافة محمد بمجموعها هى خرافة الساحر المتألق وهى شبيهة بخرافات الشعوب القائلة بوجود الروح فى كل جسم حى[٣] .

---

(١) سنة ١٩٥٤ م تحت كلمة [محمد]

(٢) الاسلام فى نظر الشيوعية ص ٧٨ .

(٣) ص ١٥٩ من المصدر السابق نقلا ن د.

ومن أجل هذا كله فقد أخذت الماركسية توجه ضرباتها للمسلمين فى كل مكان وصل مدها إليه رغم اعترافها بأن المسلمين تحت حكم القياصرة كانوا أكثر الناس اضطهادا ورغم لجوء الماركسية فى بداية ثورتها إلى هؤلاء المسلمين يطلب منهم العون والمساعدة وتذكرهم بما وقع عليهم من المهانة والآلام وتعدهم بأنها سوف تحقق لهم العدالة والحرية وتعيد لهم حقوقهم الضائعة وترد لهم كرامتهم المسلوبة . وتترك لهم حرية العقيدة كاملة فقد أصدر مجلس قوميسيرى الشعب البلشفى فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ نداء موجها إلى شعوب روسيا من المسلمين وكان من بين من وقعوه لينين وستالين وقد جاء فيه .

[إن امبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل ناراً

وفى وجه هذه الاحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يامسلمى روسيا والشرق . أنتم يامن تشقون وتكدحون وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل أيها المسلمون فى روسيا .

أنتم يامن انتهكت حرمات مساجدهم وقبورهم ، واعتدى على عقائدكم وعاداتكم ، وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم :

سيكون حرية عقائدكم ، وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم لايطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد .

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لايحول بينكم وبين ماتشتهون حائل .

إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين .

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة .

وإذن فشدوا أزر هذه الثورة ، وخذوا يساعد حكومتها الشرعية[١] .

وهكذا اعترف زعماء الماركسية بما اقترفه الحكم السابق من دنايا وآثام وآلام واجرام فى حق المسلمين وبشروا بانتهاء عهد الآلام والمصائب ، فهل تحقق ذلك ياترى ؟ .

لم تمض فترة طويلة حتى تكشفت الحقيقة كلها وبرز الخطر على الكيان الاسلامى برمته وأخذ الجيش الأحمر يحصد الجمهوريات الاسلامية من شاطىء المحيط الهادى إلى جبال أورال ويجرد المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات وشرعوا يهدمون المساجد والمعاهد الدينية فلم يبق ١٥٥٨ مسجداً بالقرم إلا آحاداً تافهة .

وقتل الشيوعيون فى التركستان وحدها سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

وفيما بين عام ٢٧ / ١٩٢٩ ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم وعدداً من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ثم أعدمت فريقاً وأرسلت فريقاً إلى مجاهل سيبيريا ومن سنة ١٩٣٢ / ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعا نتيجة إستيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها إلى الصينيين الذين أدخلوهم إلى تركستان .

ولقد بلغ مجموع المساجد التى هدمت أو حولت إلى غايات أخرى دنيئة فى التركستان وحدها ٦٦٨٢ مسجداً منها أعظم المساجد الأثرية مثل منارة مسجد كالان فى مدينة بخارى وكذا جامع فى مدينة قوقان وجامع ابن قتيبة[٢] وغيرها كثير وكثير .

---

(١) ص ١٢٢ - ١٢٣ الاسلام فى وجه الزحف الأحمر محمد الغزالى .

(٢) ص ١٣٧ الاسلام فى وجه الزحف الأحمر محمد الغزالى .

الماركسية والأخلاق

لا تؤمن الماركسية بشيء من الأخلاق التى تعارفت عليها الإنسانية قديماً وحافظت عليها وعملت على نشرها ودعم مبادئها الكريمه وذلك مثل المحبه والتعاطف والتعاون والفضائل والمثل العالية والمبادىء السامية والأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة والغايات النبيلة .

فليس فى تعاليم الماركسية إلا جميع الرزائل والمفاسد أو على حد تعبير « هارولد كوكس » فى كتابه « الحرية الاقتصادية » حيث يقول .

« ليس فى تعاليم الشيوعية شىء مثالى أو رفيع ، إنها تستقصر جميع الثورات وجميع الرزائل كالحسد والغيرة والشهوة ، هى تشجع أو على الأقل تجيز الأتلاف والشطط والخلاعة والإيذاء ، إن غايتها السلب والنهب » .

إن الماركسيين يكرهون أسمى الفضائل الانسانية ، إنهم يكرهون الرحمه ولا يعرفون الشفقة . وليس لديهم العطف وحب الجار معرفة يقول « لينين » .

« لا نحتاج إلى الحب ، بل إننا أحوج إلى البغض والأحقاد ، يجب علينا أن نتعلم البغض وأن نرضعه مع اللبن [1] .

ويقول كارل ماركس :

« الشيوعيون لا يبشرون بأية أخلاق على الاطلاق ، إنهم لا يضعون للناس الأمر الخلق أحبوا بعضكم البعض . لا تكونوا أنانيين . إلخ بل بالعكس ، انهم يعرفون تماما أن الأنانية مثل التضحية هى فى ظل ظروف

---

(١) ص ٣٩٧ الفكر العربى المعاصر . أنور الجندى

معونة الشكل الضرورى لصراع الفرد من أجل البقاء »[١] .

وتأمل معى الآن مايقوله لسانهم الرسمى :

« نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقا نعده شر أعدائنا ، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمه ، وهذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبه فى سبيل تقدم الثورة ، فليسقط حبنا لجيراننا ، فإن مانريده هو الكراهية والعداوة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم[٢] .

إن الماركسية تنكر الأخلاق والفضائل التى أمرت بها الأديان وجاء بها الوحى وحملت أعلامها مواكب الرسل الخيره وبين رسول الإسلام العظيم الهدف السامى من بعثته عندما قال [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] .

تنكر الماركسية هذا كله ولاتهتم إلا بنشر نوع غريب من الرزائل بين شبابها تجعله قاموس أخلاقها وهاهو « لينين » يحدد واجبات منظمات الشباب فى الخطاب الذى ألقاه بالمؤتمر الروسى لاتحاد الشباب الشيوعى فى ١٩٢٠/١٠/٢ حيث أكد - فى هذا الخطاب - كفر الشيوعية بالله [مصدر الأخلاق] وبين أن أخلاقهم تختلف عما هبط بها وحى السماء .

لقد بدأ لينين خطابه قائلا :

أيها الرفقاء ، يسرنى أن أبحث معكم اليوم فى موضوع الواجبات الأساسية لاتحاد الشبان الشيوعيين . وأن أتوسع فأبحث بوجه عام كيف تكون منظمات الشبان إطلاقا فى جمهورية اشتراكيه ومما يزيد فى أهمية درس هذه المسائل أن الشباب هم فى الحقيقة الجيل الذى سيحمل العبء الأكبر فى إنشاء صرح

---

(١) ص ٢٢٧ المؤلفات الكامله لماركس وانجلز قسم أول مجلد خاص .

(٢) ص ٣٤ الاسلام والشيوعيه د . عبد الحليم محمود

المجتمع الشيوعى الذى لم يقم جيل العمال الحاضر بأكثر من وضع أساسه .

إلى أن قال :

(. . . وهنا يأتى السؤال الهام : كيف يكون تعليم الشيوعية وماهى الأساليب الخاصة التى يجب أن تمتاز بها طرقنا فى التعليم ؟ .

إن أول ما أرى إيضاحه لكم فى هذا الصدد هو دستور الأخلاق الشيوعية . . قد تتساءلون . . وهل هناك شىء يسمى الفضائل الشيوعية ؟ .

الجواب : نعم كثيراً ما أتهمت البورجوازية الشيوعيين بأنهم لا يعبأون بالأخلاق ، وأنهم ينكرون أى مبادىء لها إن إلقاء الكلام بهذا الشكل إنما هو من قبيل ذر الرماد فى عيون العمال والفلاحين .

وإنما الحقيقة عن إنكارنا قواعد الأخلاق أننا ننكر ماتدعيه البورجوازية من أن مبادىء الأخلاق هى أوامر من عند الله فنحن بالطبع لا نؤمن بالله . ونعلم تمام العلم بأن القساوسة والملاك والبورجوازية نسبوا الأمور إلى هذا الاسم « الله » لتحقيق مآربهم الإستغلالية ويواصل « لينين » خطابه فيقول :

ونحن ننكر كل أخلاق لايكون مصدرها المدارك الإنسانية ونجاهر بأنها جميعها مجرد غش وخداع وكبت لعقول العمال والفلاحين .

وإن القوة التى تسيطر على أخلاقنا هى مصلحة طائفتنا فدستور أخلاقنا مستمد من حركة كفاحنا العمالية لقد كان المجتمع القديم قائماً على أساس ظلم الملاك والرأسماليين للعمال والفلاحين ، لذلك وجب علينا نسف هذا الأساس ، ولكى يتسنى لنا ذلك لابد لنا من الاتحاد وأن نوجه هذا الاتحاد بأيدينا فإن « الله » لن يخلقه إنما الذى يستطيع خلقه هم « البروليتاريا » وحدهم وإذا كان كفاحنا الطائفى لايزال قائماً ، فواجبنا الأول هو أن نخضع لمستلزمات هذا الكفاح كل شىء عندنا ، وفى ذلك أخلاقنا الشيوعية .

فالأخلاق عندنا هى أن نعمل كل ما يساعد على هدم المجتمع الاستغلالى القديم وجمع كل صفوف الأيادى العاملة حول البروليتاريا القائمة بإنشاء المجتمع الشيوعى الجديد . . . يتكلم الناس أمامنا عن مبادىء الأخلاق . فنقول لهم إن الأخلاق عندنا معشر الشيوعيين ليست سوى النظام الموحد والتكتل المنظم لمكافحة الاستغلاليين .

نحن لا نعتقد فى الأخلاق الأزلية . ونعد كل الأقاصيص الخرافية التى ترمى إلى غرض أخلاق قولا هراء ، ولا نعرف الأخلاق إلا بصفتها عوناً للمجتمع على ارفع من مستواه والقضاء على كل عمل استغلالى .

لذلك لا تتكون تربية النشء الشيوعى بإلقا دروس الوعظ والخطب الأخلاقية بل اشراكهم فى الميدان العملى القائم لتشييد وتدعيم صرح الشيوعية[1] .

إن الذى يحدد معايير الأخلاق وضوابط القيم إنما هو الانسان الماركسى أو بعبارة أدق هو الحزب الشيوعى ، وعلى ذلك فليس هناك أخلاق ثابتة ولا قيم مستقرة فحركة المجتمع متطورة ومتغيرة فما يكون حسناً يمكن أن يكون شراً غداً ، فليس هناك مثل عليا ، ولا مصدر تستلهم منه المثل العليا ، فالأخلاق فى عرفهم هى تلك التى ينشئها المجتمع لخدمة صالح الطبقة التى تهيمن على وسائل الثروة والانتاج .

يقول صاحب كتاب « الشيوعية والانسانية » .

مذهب الشيوعيين فى الأخلاق أن المجتمع ينشىء الأخلاق لخدمة مصالح

---

(١) ص ٤٤ - ٤٦ : الاسلام فى وجه الزحف الأحمر : محمد الغزالى وص ٣٤ - ٣٥ الاسلام والشيوعية .

الطبقة التى تملك زمام الثروة فيه وتسيطر على وسائل الانتاج وأن أبناء المجتمع لا يعيبون هذه الأخلاق مادامت وسائل الانتاج ناجحة منتظمة ولو كانوا من ضحاياها .

وليس فى أصل الطبيعة البشرية ما يوصف بالخير أو بالشر إلا حين يرتبط بمصلحة الطبقة الغالبة أو بما يدابر مصلحتها فليس لطبقة الأجراء الصعاليك إذن أن تستحسن شيئاً غير ما يوافق مقاصدها ولا أن تستهجن شيئاً غير ما يعوق تلك المقاصد وما عدا ذلك من عرف شائع فإنما هو من بقايا المجتمعات التى كانت تقوم على تسخير الطبقة الأجيرة واستغلال جهودها [1] .

إن ماركس يضع القوة محل الرفق والعنف مكان الحب إنه يقول :

إن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بهدم كل النظام الاجتماعى التقليدى بالعنف والقوة] .

وأخيراً فإننا مع الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود عندما يقول :

ومما لاشك فيه أن الأساليب الشيوعية تتخذ من أسسها « الغاية تبرر الوسيلة » وهذا وحده أعظم برهان على أن الانحطاط الخلقى عندهم شىء هام بل ومعترف به رسميا وأنه القاعدة [2] . ومن ثم فان الشيوعية تبارك كل أنواع الخداع والغش والاحتيال فى سبيل تحقيق المبادىء الشيوعية يقول « لينين » :

يجب على المناضل الشيوعى أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل ، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية . يجب أن يكون مفهوما أن الشيوعية غاية نبيلة ، وأن تحقيق الغاية النبيلة

---

(١) العقاد ص ٢٢٩ .

(٢) دكتور عبد الحليم محمود ص ٣٥ الاسلام والشيوعيه .

يتطلب فى كثير من الأحيان إستخدام وسائل غير نبيلة ، ولهذا فان الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناقضة للأخلاق مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق الشيوعية[1] .

ولقد جاء فى كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) الذى يرسم السياسة العالمية اليهودية مايأتى :

(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان ، فتسهل سيطرتنا إن (فرويد) منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس ، لكى لايبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو ارواء غريزة الشباب وعندئذ تنهار أخلاقه .

لقد رتبنا نجاح (دارون) و (ماركس) و (نتشة) بالترويج لآرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق لذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد)[2]

---

(١) ص ٢٧ - ٢٨ حركات ومذاهب فى ميزان الاسلام فتحى يكن مؤسسه الرسالة .

(٢) ص ٦٣ هامش الانسان بين الماديه والاسلام محمد قطب وص ٣٤ التفكير الفلسفى الاسلامى د سليمان دنيا .

الماركسية والأسرة

إن المجتمع الذى يريد أن تسود السعادة ربوعه ، وترفرف عليه أجنحة المحبة والمودة هو ذلكم المجتمع الذى يهتم بالأسرة ويعمل على أن تكون جذورها العميقة تنبع وتمتد من الايمان بالله عز وجل ، وسداها ولحمتها العطف والرحمة ، وقيمها ومعاييرها تقوم على القيم الفاضلة والأخلاق الكريمة ، وغايتها فى حياتها وفى أنشطتها المعاشية والعمرانية تهدف إلى رضاء الله تبارك وتعالى ، وقانونها الذى يظلها وينظم علاقاتها مرتكز ومستمد من شرع الله ومنهجه[1]

ومن المعروف أن الأسرة هى الوسط الذى اصطلح عليه المجتمع لاشباع غرائز الانسان ودوافعه الطبيعية وبواعثه الاجتماعية ، وذلك مثل حب الحياة وبقاء النوع وتحقيق الغاية من الوجود الاجتماعى ، وتحقيق العواطف والانفعالات الاجتماعية مثل عواطف الأبوة والأمومة والأخوة وما إلى ذلك ، وهذه كلها عبارة عن قوالب ومصطلحات يحددها المجتمع للأفراد ، ويستهدف من ورائها الحرص على الوجود الاجتماعى وتحقيق الغاية من الاجتماع الإنسانى[2] .

ومن المعروف كذلك أن الروابط إذا كانت قوية بين أفراد الأسرة كان المجتمع بالتالى قويا فالأسرة هى النواة التى تتفرع منها شجرة المجتمعات وتسعد بسعادتها أو تشقى بشقائها ، كما تقوى بقوتها أو تضعف لضعفها لأنها - الأسرة

---

(١) ص ١٢١ الإسلام وبناء المجتمع د أحمد العسال (بتصرف) دار القلم سنة ١٩٧٥ طبعة أولى .

(٢) ص ٢١١ علم الاجتماع الحضرى والمدن المصرية د. زيدان عبدالباقى مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٤ .

أساس المجتمع وخليته الأولى وهي ذات كيان دائم يراد له السعة والامتداد والوئام ولذلك فان كل الفلسفات والمجتمعات تحرص على توثيق العلاقات بين أفراد الأسرة تلك التي تنعكس آثارها على المجتمع سلبا أو إيجابا .

ولكن الماركسية لها فلسفة خاصة حول هذا النظام الاسرى فالمجتمع الماركسي يدفع النساء للخروج إلى الحياة العامة مع الرجال في أماكن جماعية أشبه بالكيبوتز الاسرائيلي وفي هذه الاماكن تمارس عمليات التربية والترفيه والتثقيف بصورة جماعية خارج محيط الاسرة ، الامر الذى يهدم الاطار الاساسي للحياة العائلية ويقضى على الألفة والمودة الخاصة التى تنشأ بين الزوج وزوجته هذه من ناحية .

ومن ناحية أخرى فليس للزواج مظهره المقدس ، وإنما يكفى في إتمام هذا الزواج أن يتقدم من يرغب فيه إلى الموظف المختص للحصول على إستمارة خاصة يدون فيها اسمه واسم من يرغب في معاشرتها دون شاهدين ودون إقامة حفل ترفيهى أو ديني بمعنى أن هذا الزواج لايقوم على أساس ديني كما تباح المعاشرة الجنسية بين الرجال والنساء بدون عقد زواج وترعى الدولة الأطفال الذين يولدون من هذه المعاشرة غير المشروعة ، كما يبيح المجتمع الشيوعي الاجهاض بحجة أن الشخص حر في بدنه وله أن يفعل مايشاء [١] .

وهكذا فان الحياة الأسرية في هذا المجتمع الشيوعي تقوم على أساس التفكك وإعدام الروابط الأسرية ونسف كل حب ينشأ بين الأفراد يقول أحد الشيوعيين :

---

(١) ص ٢٥ – ٣٦ أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي بتصرف د. زيدان عبد الباقي دار المعارف بمصر .

« يجب أن نبدل العائلة بالمبدأ الشيوعى الذى تنطفىء فيه حب الآباء لأبنائهم » .

وينظر المجتمع الماركسى للمرأة على أنها كالرجل آلة فى عملية الانتاج وحتى تتفرغ لهذا الانتاج فإن الحكومة الشيوعية تحرمها من الأطفال وتحرم الأطفال فى الوقت نفسه من حنان وعطف أمهاتهم وآبائهم وذلك بوضعهم فى مؤسسات شيوعية ضماناً لتنشئتهم على مبادىء الشيوعية لأنهم ملك الدولة يقول لينين :

« أعطونى طفلا دون السابعة من عمره وخذوه شيوعياً ممتازاً إلى الأبد »

وكذلك فان روابط الزواج والأمومة والأبوه ، والبنوه توزن بموازين جديدة غير ما ألفت الأمم فى تكوين الأسرة وحضانة الأولاد وغرس التكافل والتحنان بين أفرادها . ولقد قيل للشيوعيين على عهد « ماركس » انكم تريدون القضاء على الأسرة وهدم أقدس العلاقات العائلية باحلال تربية المجتمع للأطفال محل تربية المنزل ! ! .

وكان جواب ماركس هو :

إن البورجوازين يتهمونا معشر الشيوعيين بأننا نريد شيوع المرأة .

ان البورجوازى يرى فى زوجته مجرد أداه للانتاج ، وهو يسمع أننا سنحول أدوات الانتاج إلى ملكية شائعة ، فيصل بالطبع إلى نتيجة واحدة بالنسبة للنساء ، وهى أنه سيسرى عليهن أيضاً نظام الشيوع ، ولا يخطر له ببال أننا نريد أن نحول دون جعل النساء مجرد أدوات للانتاج .

أما فيما عدا ذلك فمن أكبر المضحكات أن يثير سخط البورجوازية مايزعمونه من أننا نريد إعلان شيوع المرأة رسمياً . فان الشيوعيين لا حاجة لهم بابتداع شيوع المرأة لأن هذا الشيوع حاصل فعلا من مدد مديدة .

إذ أن البورجوازيين لايقنعون بوجود زوجات العمال وبناتهم تحت تصرفهم فضلا عما هو أمامهم من ميدان البغاء الرسمي بل يجدون سروراً عظيما في إغواء بعضهم لزوجات بعض فنظام زواجهم إنما هو ترويج النساء الجماعات لا للأفراد وغاية ما يمكنهم إتهامنا به . أننا نريد أن نستبدل بشيوع المرأة المستتر وراء النفاق شيوعا علينا مشروعا[1] .

وهكذا يرى ماركس (شيوعا علينا مشروعا) .

ولكن ماذا نرجو من رجل يجحد الله ؟ إن تلك الانحرافات الأخلاقية التي ترتبط بالنواحي الجنسية في المجتمع الشيوعي ترجع إلى عدم الاعتقاد في الثواب والعقاب في الآخرة على أساس أن الثواب والعقاب عملية ترتبط بالحياة الدنيوية فقط .

---

(١) ص ٤٢ - ٤٣ الإسلام في وجه الزحف الأحمر : محمد الغزالي .

الصهيونية أصل للشيوعية

إن المتتبع للحركات الفكرية والتيارات الهدامة والممعن فى دراسة الخصائص التى تتسم بها الصهيونية والشيوعية يدرك إدراكا قويا بأن هناك صلة وثيقة وعلاقة قوية وترابطا متينا بين هاتين الحركتين الخطيرتين ، وهذا ماتوصل إليه « نيتشه » فى القرن التاسع عشر عندما قال :

« إن المفكر الذى يهمه أمر أوربا ويطيل فيه التفكير تكشف له انظاره إلى المستقبل أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى رواية المستقبل العظيمة وصراع القوى المنتظر » .

لقد كشف نيتشة بهذه الكلمات عن الصلة الخفية بين الصهيونية والشيوعية وحدد أهدافهما .

فالهدف الأسمى للشيوعية – كما تعلم – هو السيطرة على مقدرات البشر والسيادة على العالم ، وقد أصبح هذا واضحا منذ مقالة ماركس « أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه » .

وهذه السيطرة على العالم هى ماتتوق إليها الصهيونية منذ زمن بعيد لإعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وأن بقية الناس ماخلقوا إلا للسير فى ركابهم والعمل فى خدمتهم وتنفيذ أوامرهم والاسراع فى طاعتهم

ولقد جاء فى البروتوكول الخاص من بروتوكولات حكماء صهيون (أننا نقرأ فى شريعة الانبياء أننا مختارون من الله لنحكم الارض . وقد منحنا الله العبقرية كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل ، وسنضع موضع الحكومات القائمة ماردأ يسمى ادارة الحكومة العليا ، وستمتد أيديه كالكلاليب

الطويلة المدى ، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل في اخضاع كل الأقطار] .

ومن أجل ذلك فان الصهاينة هم أول من نادى بالشيوعية :

وهاهي مجلة « أفريكان هيبرو » وهى من كبرى المجلات اليهودية الأمريكية تقرر فى عددها الصادر فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٠ أن الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود ، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ونتيجة لتدبير اليهود ولسوف تضم الشيوعية العالم بسواعدهم[1] .

كذلك تعمل كل من الصهيونية والشيوعية على نشر الالحاد وتخريب القيم الكريمة والفضائل السامية ونسف كل المثل التى تدعو إلى الأخلاق والقضاء على الأديان وهى أساس كل خلق نبيل فاذا فسدت الأديان وضاعت القيم وتلاشت الأخلاق ودب التحلل فى الأمم وتسرب الفساد فى المجتمعات وزالت مناعتها فانه ـ بعد هذا ـ يسهل السيطرة عليها .

ولقد جاء فى البروتوكول الرابع عشر .

[ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الايمان وإذ تكون النتيجة المؤ ، لهذا هى إثمار ملحدين ، فلن يدخل هذا فى موضوعنا ، ولكنه سيه ب مثلا للأجيال القادمة التى ستصغى إلى تعاليمنا على دين موسى الذى وكل إلينا بعقيدته الصارمة واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا][2] .

---

(١) ص ١٧٢ حقيقة الشيوعية . (٢) ص ١٨٤ الخطر اليهودى ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ محمد خليفة التونسى .

ونفس الهدف هو ما تعمل له الشيوعية ، وها هو زعيم الشيوعية الأكبر وواضع أسسها « كارل ماركس » يقول « لا إله والحياة مادة » ومن هنا كان سرور اليهود بماركس ولذلك فإنهم سارعوا بترتيب نجاحه بالدعاية وبالكتب وبالصحف وبكل وسائل الدعاية والاعلام والنشر بل ويعلنون ذلك كله بصراحة حيث يقولون .

« نحن الصهيونيون الذين رتبنا نجاح كارل ماركس » .

كذلك فإن طابع العنف والوحشية والقسوة والغدر وكل ماتتصف به الشيوعية هو نفسه ماتتصف به الصهيونية .

يقول ستالين :

انكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية التى تقتل الملايين فتقبلونها صاغرين ، فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التى تقوم بها السلطات الشيوعية للحفاظ على هذا المبدأ الذى سيقدم إليكم الخير .

وهذا ماجاء فى البروتوكول الصهيونى الاول .

« يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة ، إن القوة المحضة هى المنتصرة فى السياسة ، وبخاصة إذا كانت مقنعة بالألمعية اللازمة لرجال الدولة » يجب أن يكون العنف هو الأساس »[1] .

ولذلك فإننا نرى أن أنصار الشيوعية فى العالم معظمهم من أنصار اليهود وقد تبين ذلك بأجل بيان فى الاحصاء الذى أجرته السلطات الأمريكية وظهر لها منه أن تسعين فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، وأن الموظفين الذين فصلوا من الخدمة بتهمة الشيوعية كان من بينهم ١١٨ يهودى من ١٣٠ ، وعلى أثر قيام الثورة الشيوعية فى روسيا حكم روسيا

---

(١) ص ٢٧ حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام فتحى يكن .

عشرة أعضاء كان بينهم سنة من اليهود وأن ستالين كان متزوجاً من يهودية بل إنه في بعض الروايات كان من أصل يهودي ومؤسس الماركسية من أب وأم من اليهود[١] .

ومن كل ماتقدم تصل إلى حقيقة لاشك فيها وهي أن الصهيونية أصل الشيوعية وأنهما صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وهذا ما كتبه « فرانك . ل . بريتون » في كتابه الصهيونية والشيوعية حيث يقول :

وأما الحقيقة الراهنة فهي أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحده وما أختلافهما الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح في السعي إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل اتحدتا معاً للسيطرة على العالم .

ويقول « روبرت وليامز » صاحب كتاب « اليهود في أمريكا » .

إن الصهيونية ليست شقيقة الشيوعية فحسب بل هي أمها ، وكل من درس تاريخ الشيوعية يعلم أن الذين كونوها وساروا بها إلى وضعها الراهب أغلبهم - خلال تاريخها - يهود متعصبون لليهودية[٢] .

إن الشيوعية ربيبة الصهيونية العالمية وهذا مما لاشك فيه بل وهذا مانطقت به فقره من فقرات البروتوكول الثالث لحكماء صهيون حيث تقول أننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال ، جئنا لنحررهم من هذا الظلم ، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين ، ونحن على الدوام نبين الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للانسانية ، وهذا ماتبشر به الماسونية الاجتماعية .

---

(١) ص ١٧٢ - ١٧٣ حقيقة الشيوعية .
(٢) ص ٥٢ الإسلام والشيوعية . د . عبد الحليم محمود .

ومن المعروف أن كثيراً من زعماء العالم العربي يدركون هذه الحقيقة ويعلمون أن أهداف الشيوعية والصهيونية واحدة ومنهجهما كذلك واحد وغايتهما ـ بلا شك ـ واحدة يقول المرحوم عاهل السعودية الكبير الملك فيصل

« إن الشيوعية والصهيونية لا تتيحان الفرصة للعالم لتحقيق أهدافه من التقدم والاستقرار ، والعالم يحتاج إلى البناء لا الهدم والتخريب ، ولكن الشيوعية والصهيونية لم تتركا لنا الفرصة لبناء بلادنا وشعوبنا ، وعندما أقول الصهيونية والشيوعية نذكر إسمين ، ولكن الحقيقة أن الصهيونية ولدت الشيوعية وهدفها الأساسي هو التخريب والتحطيم ولسوء الحظ يجدون الفرصة في أكثر من بلد في العالم لتخريبه .

وقد بدأت الشيوعية والصهيونية الآن في إدخال نظريات هدامة للتأثير على النشأ الجديد لينشأ ضعيفاً لايعتمد عليه ، كما أنهم أفشوا التحلل الخلق والنظريات التخريبية للتأثير على المجتمع والأخلاق .

الباب الثانى

الفصل الأول

١ ـ الاسلام والفكر الماركسى

٢ ـ موقف الاسلام من الإلحاد الماركسى

٣ ـ موقف الاسلام من المادة

الاسلام والفكر الماركسى

تمهيـــد :

مما لاشك فيه أن الإسلام هو الدين الذى رسم العلاقة المتينة بين الإنسان وخالقه جل جلاله ، وهو منهج حياة من حيث إنه يوضح - فى شمول وتكامل ودقة - العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وقد أوجد الإسلام صيغة من التوازن والالتقاء بين الفردية والجماعة على نحو يحقق ذاتية الفرد وحريته وكرامته ويحقق فى الوقت نفسه إيجابية المجتمع ودور الفرد فى بنائه ورفاهيته وتقدمه وحضارته وهو - كذلك - نظام متكامل فيه كل الدعوات التى عرفها العصر من حرية وعدالة ومساواة وتكافل اجتماعى وله فى هذه القيم مفهومه الواضح السمح والخاص به ولقد كان من أبرز هذه المفاهيم أن كل قيم الفكر الإسلامى الأساسية قد تقررت - قبل أن يختار المصطفى صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى جامعة بين العقل والوجدان والدين والدنيا والروح والمادة لا انفصال لاحدهما ولا استعلاء ، وأن هذه الأصول هى التى تقررت يوم أنزل على الرسول الكريم من ربه الأعلى [اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا] فلم تتغير ولم تتبدل ولم يأت أى إضافة إليها أو زيادة عليها وكل ماجاء بعد ذلك فهو تفسير أو تفصيل وفق قاعدة الاجتهاد الذى أقرها الإسلام لمواجهة كل تغير العصور والبيئات والمجتمعات وللاسلام قانونه الذى لا يتخلف أبداً وهو أنه يتجدد من داخله ويتحرر من أعماقه فعنـــدما تهب رياح الشكوك والإنحراف وتتكاثف السحب لتحجب جوهر مفهومه ولمعان ضوئه فإنه يكون قادراً على التماس المنابع الصافية التى يطهر بمائها الطاهر [illegible] حياة

الإنسان من الشكوك والأوهام ويجرف بتيارها القوى الكاسح ما رسب في مجرى الحياة من زيف وضلال وخداع وافتراء ثم تهدأ المعركة عن كشف فاضح للباطل وأهله وعن نصر صادق للحق وأتباعه ثم وضوح كبير للقيم النبيلة وتصحيح للمفاهيم الحقة وإشراق متألق لتعاليم الإسلام الأصيلة .

أجل : لقد أحدث الإسلام أثره في النفوس كما يحدث الربيع أثره في الحياة فغير عقائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم إلى الكون وإلى الطبيعة وإلى الحياة ونقلهم من صميم الظلمات إلى منطقة الضوء والأشعاع وانتشلهم من وهاد الفساد إلى قمة الإصلاح وصيرهم أساتذة العالم وقادة الدنيا وسادة الوجود ، كما اختفت الكهانة وأصبحت حركة مهينة بعيدة عن روح العلم والحياة ، ورأى العالم - بفضل الاسلام - من الأعاجيب فعلمنا الجاهل وأعززنا الذليل ، وقومنا المعوج وعالجنا المريض وأهدينا إلى البشرية الخائفة المذعورة أمنها وسلامها واستقرارها وكرامتها ، وأطلقنا مواهب الإنسان خصائصه لتصنع التقدم وتتفاعل مع الكون وتعبد الله ، أفضنا على العالم حرية طاقة لا تستذل رقاب البشر ولا تخضعهم إلا لله .

وإذا كانت هذه حقائق الاسلام فما موقفه إذن من الدعوات المادية التي تظهر في صور براقة زائفة لتخدع شباب الاسلام وتفتح لهم طريقا إلى التحلل والفساد والإباحية ولتحطم مقومات الأخلاق وضوابط القيم وحدود الله وذلك تحت شعار حرية الفكر والرأى ، ماموقف الإسلام من الماركسية ودعوتها في إنكار خالق هذا الكون سبحانه وتعالى وتنكرها لكل القيم والأخلاق ؟

موقف الاسلام من الإلحاد الماركسى

يقول ماركس :

لا إله والحياة لمادة

ومعنى ذلك أن كارل ماركس لا يؤمن بالله ربا ، بل ولا يعترف بهذا الرب إنه ينكر وجوده أساسا .

وهنا يأتى سؤال : من أوجد هذا الكون إذن ؟ ومن خلق هذا العالم العظيم ؟

إن الدعوى التى جاء بها ماركس (دعوى إنكار الألوهية) لم تكن هى الوحيدة التى ترددت فى سمع الزمن ، وإنما كانت صدى لدعوى فرعون مصر عندما اعتز بنفسه واغتر بقوته واستخف قومه فأطاعوه فأعلن بأنه لهم إله وأن لا وجود لإله آخر فى هذا الوجود وها هو القرآن الكريم يقص علينا حكاية عن فرعون .

(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب [1]) .

كان ماركس على هذا متابعا لفرعون فى إنكار الله جل جلاله فى هذه الحياة الآخرة لقد أجرم كل منهما فى حق ربه وسوف ينال كل منهما عاقبة إجرامه (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحى [2]) .

---

(١) سورة غافر ٣٥ : ٣٧ .
(٢) طه ٧٤ .

(النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (١)) .

ودعوى ماركس هذه تصادم الفطرة الانسانية وتلغى أهم غريزة فى البشر وأعنى بها غريزة التدين ، فالإنسان يولد وبه إيمان فطرى بوجود قوة خفية تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله . قوة يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها فى حياته ، وقد ظل الإنسان يؤمن بأن هناك يداً خفية تحرك هذا الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها وأن إبداع هذا الكون وما فيه من حوادث وأحداث ومظاهر وظواهر وآيات تنطق بوجود قوة عظمى وراء هذا كله .

والناس يجمعون على ذلك مهما اختلفت أسماء هذه القوة عندهم يستوى فى ذلك الممعن فى البداوة أو المغرق فى الحضارة — حتى عبدة الأوثان فإنهم — مع تقديسهم لهذه الأوثان — يعترفون بوجود خالق من ورائها ، وها هو كتاب الإسلام الخالد — القرآن الكريم — يحكى عن وثنى العرب أنهم كانوا فعلا يؤمنون برب واحد ولم يرون أن أوثانهم فقط ترتفع بهم — حسب ظنهم — درجات فى إتجاه هذا الآله وتشفع لهم عنده [ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] — ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله] ومع هذا يقرون بخالق هذا الكون [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله] هل ينكر ماركس وجود هذ العالم وما به من أدلة عظمته ؟

وما أكثر الأدلة التى نشاهدها فى هذا العالم وكلها تنطق بوجود إله قادر عظيم ؟ وما أكثر البراهين التى ساقها القرآن العظيم فى هذا المجال ؟ وما أكثر الآيات التى يشعر بها الانسان — سليم العقل والفكر — فى كيانه وفى دخيلة نفسه

---

(١) غافر ٤٦

[وفى أنفسكم أفلا تبصرون] إننا لو نظرنا إلى مقالة الأطباء فى المملكة الإنسانية وعجائب صنع الله المتقنة فيها وما حواه الإنسان من نظام فى حركته الدموية وجهازه الهضمى وكيف تتكون حواسه ؟ وكيف يعمل عقله ؟

لقد أدرك الانسان منذ وجد أن فى كيانه قوة مطلقة من القيود ـ قيود الزمان وحدود المكان ـ تعمل دائما فى يقظته وفى منامه وفى قريب المكان وبعيده ، وتلقى إليه ـ على غير استدعاء منه ـ صورا لا تنتهى من الخيالات والرؤى والأحلام وتعيد إليه كثيراً من ذكريات الماضى وكأنها وليدة يومها أو ساعتها ، هذه القوة هى الروح التى تمنح الانسان حركة وحياة فإذا انسلخت منه فلا حركة ولا حياة .

كيف تعمل هذه الروح؟ وكيف يؤدى كل عضو من أعضائنا الوظيفة التى من أجلها قد وجد .

إننا نقول لماركس وغيره من أوجد هذه الروح ؟ وكيف تكون فى الجسد؟ وهل وجدت يا ترى من نفسها ؟ أو أن صدفة عمياء هى التى كونتها وأوجدتها ؟ وجعلتها مظهر حياة وحركة ونشاط ؟

أم أن ماركس لا يرى فى الروح مظهر قدرة وعظمة إبداع فيكون مع هؤلاء الذين يقول الحق تبارك وتعالى فى شأنهم [وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون] وقد يعمى ماركس وأتباعه عن رؤية الروح وما فيها من إعجاز وذلك للطافتها وعدم مشاهدتها حيث لا يؤمن إلا بالمشاهدة والمحسوس .

ولكن ألم ير السماء ويشاهد الشمس؟ وينظر إلى القمر؟ ويتطلع إلى النجوم وسحرها ؟

وهل فكر يوما فى الشمس ومالها من حرارة مفيدة وضياء باهر ، تسير

فى مواعيد منتظمة لاتتلخف ثم من وضع الأرض أمام الشمس على مسافة خاصة ، لو نقصت بحيث إزداد قربها من الشمس لا حترقت أنواع الأحياء من نبات وإنسان وحيوان ، ولو بعدت مسافتها عن الشمس لعم الجليد والصقيع وجه الأرض وهلك كذلك الزرع والضرع .

ثم ألم ينظر إلى القمر وحركة المد والجذر التى ترتبط به ؟ ؟

أماكان من الممكن أن يقترب القمر شيئاً فشيئاً وإتجاهنا فإذا بأمواج المحيطات وقد غطت كل شىء ولاتترك أى شىء على وجه اليابسة ثم تنحسر عنها وقد تلاشى كل شىء .

من الذى أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر خير ونفع وضياء لامصدر شر وضر وهلاك ؟

بل من الذى يجعل هذه الأفلاك كل منها يسير فى مدار خاص به وفلك معين ومسار معروف لايتعداه (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون [١]) .

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً [٢]) .

إذا كان ماركس قد عجز عن رفع رأسه إلى السماء ومافيها من قدرة الخالق وإبداع الصانع جل جلاله فهل نظر إلى مايحيط به فى هذه الأرض وهل شاهد مافيها من جبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود ومابها من معادن

---

(١) يس ٤٠ .
(٢) الفرقان ٦١

ونحاس ثم ما فى بطنها من زيت اللهب وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الانسان فى شئون حياته ثم هل شاهد جنات الارض وحدائقها وعيونها وبحارها وأنهارها وأشجارها وأزهارها وألوانها وعبير رائحتها وحلاوة شذاها (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (١)) .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٢)) .

هل بعد هذا الابداع كله يأتى من ينكر وجود الله تعالى ويذهب إلى أن المادة أو المصادفة هى التى صنعت هذا الكون على هذا النمط العجيب ؟

وهل قدرت فى ذهنك كما يقالى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز - بيتا منسق البنيان ، فاخر الأثاث والرياش ، قائما على جبل مرتفع تكتنفهما غابة كثيفة . . وقدر أن رجلا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله دياراً ولا نافخ نار فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها ، ثم تجمع ماتناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ومقاعد وأبهاء ومرافق ، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبواباً وسرراً ومقاعداً ومناضد ، ثم أخذ كل منها مكانه فيه وأن تكون خيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة ثم تقطعت طنافس فى تأثيث فى حجراته ولستقرت على أرائكه وأن المصابيح جعلت تهوى

---

(١) الرعد ٤ .
(٢) ق ٧ .

إليه بنفسها من كل مكان فنشبت فى سقفه زرافات ووحدانا . . ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط فى عقله ؟ فما ظنك بقصر السماء سقفه والأرض قراره والجبال أعمدته والنبات زينته والشمس والقمر والنجوم مصابيحه : أيكون فى حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت الصغير ؟ أولا يكون أحق بلفت النظر إلى باريء مصور حى قيوم خالق فسوى وقدر فهدى ؟

لقد أدرك هذه الحقيقة ـ وجود الله ـ أعرابى لم يأخذ من العلم بنصيب أدرك بفطرته أنه لاموجود يأتى من العدم دون أن يخلق ، فكل شىء مهما بلغ حجمه عظم أو صغر ، جل أو دق وراءه علة .

ولقد قال هذا البدوى عندما سئل عن دليل وجود الله تعالى : [البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع العليم القدير] .

وها هو سقراط فى العصر اليونانى يفند حجة من يقول بالمصادفة فى خلق شىء حيث يتحدث إلى أرسطو ديموس وهو غير أرسطو الشهير :

يقول سقراط : أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع ؟ قال نعم : وسمى من الشعراء والمصورين من كان بعده أبدع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأناً ؟ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية ، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل الاتفاق لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة

القصد والمنفعة فما قولك فى تلك الأشياء ؟ ما هى التى عندك من فعل العقل وما هى التى عندك من فعل الاتفاق ؟

قال : لا شك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة

فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لميشه نافعا صادقا ؟ وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا أنوف نشمها ؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمر لو لم يكن لنا لسان نذوق به ؟

إن بصرنا معرض الآفات ، أولست ترى كيف اعتنت القدرة الالهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح ؟

وما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الأصوات ولا تمتلىء أبدا ؟

أما رأيت الحيوانات وكيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً ؟

فاذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك ، هل هى من فعل الاتفاق أم هى من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس . نعم إذا تفكرنا فى ذلك فاننا نؤمن أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته .

إننا نقول لهؤلاء المنكرين لله تبارك وتعالى متى أقامت المصادفة قصرا ؟ أو متى كونت غرفة واحدة ببابها ونوافذها ثم أرأيتم - أيها المنكرون - لو جاء إنسان بآلاف من حروف الطباعة أو بملايين منها وأخذ يحركها يوما بعد يوم

وأسبوعاً بعد أسبوع ، وسنة بعد سنة ، أتراه يظفر منها — مصادفة — بتركيب ما هو كتاب من كتب الأدب أو الفلسفة أو الرياضة .

إنه كما يقول المستشرق « سانتلانا » لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور — كما يقول سانتلانا أيضاً — حدوث هذا الوجود (العالم) بما عليه من الاتقان والأحكام وتضافر الأجزاء وعجيب مناسباتها بعضها لبعض ، من حركات إتفاقية فى خلاء لا نهاية له كما يقول الماديون .

وهذا ما جعل سقراط فيلسوف اليونان الأشهر يقول (هذا العالم يظهر لنا على النحو الذى لم يترك فيه شىء للمصادفة إطلاقاً) .

ويتفق مع سقراط هذا فى العصر الحديث « فران آلن » [1] الذى يقول :

« إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .

ولا مناص من حدوث هذه الحالة من إنعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت .

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذا حدث من الأحداث .

(١) من علماء الطبيعة البيولوجية وأستاذ بجامعة مانيتو بكندا .

ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه ويقول الدكتور « ا . ج . كرونين » .

إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته لابد أن نفكر فى إله خالق . من ذا الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صيف صافية .

ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدا ، ثم لايؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء ؟ وعالمنا هذا وهو يدور فى الفضاء فى حركة دقيقة منتظمة وفصول متتابعة لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة ، نزعت من الشمس وألقيت فى الفضاء بلا معنى أو سبب ؟

أنظر وابحث فى العالم واطرح كل ما قالته الكتب المقدسة ، وتتبع سير الحياة فانك ستواجه لغزا غامضا وسرا عميقا ، فلا يمكن أن يكون هذا نشأ من العدم ، فلا شىء يخرج من لا شىء » .

ويقول « ادنجتون » .

إن من وراء هذا الكون عقلا مدبرا حكيما هو العقل ، هو الروح الأعظم هو الله سبحانه وتعالى ولقد كتب « كيل فلامريون » فى كتاب « الله فى الطبيعة » يقول :

إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة وآثار الحكمة المشهورة فى كل شىء المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق فى الهيئة العامة . لا سيما الوحدة التى تتجلى فى قانون التطور الدائم تدل على أن القدرة الآلهية المطلقة هى الحوافظ المستترة للكون ، وهى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأصلى لكافة القوانين الطبيعة وأشكالها ومظاهرها

وأخيرا فإننا نقول مع « ماريت ستانلى كونجون » أن جميع ما فى الكون

يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته وعندما نقوم ـ نحن العلماء ـ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته .

ذلك هو الله الذى لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته فى أنفسنا وفى كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته (١) .

إن الإسلام والفكر الماركسى على طرفى نقيض فبينما يقوم الفكر الماركسى على إنكار رب هذا الكون وعدم الايمان به فإن فلسفة الإسلام تقوم أولا وقبل كل شىء على الاعتراف بالله تعالى والإيمان به والانطواء تحت لوائه وإرادته والتوجه بالعبادة إليه والطاعة له والخوف منه والخضوع إليه والحب لذاته .

ولا شك أن الايمان بالله هو مصدر كل خير ومنبع كل فضيلة وأصل كل صلاح وفلاح .

ذلكم أن الانسان إذا ما امتلأ قلبه وعقله ووجدانه إيمان بالله وأنه معه

---

(١) أنظر ص ٥٠ من كتاب نور الحى القيوم طبعة أولى للحلوانى وص ٢٢ من عقيدة المسلم : الشيخ محمد الغزالى و ص ٢٢ من الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان و ص ١٦ من الله والعلم الحديث : عبد الرزاق نوفل وص ١٨ من الاسلام والعلم الحديث . عبد الرازق نوفل ١٣ - ١٥ من فى رحاب الأنبياء الأنبياء والرسل الدكتور / عبد الحليم محمود وص ٢٠ من حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد وص ١٤ من المؤامرة على الإسلام : أنور الجندى طبعة ثانية عام ١٩٧٨ وص ٤٠ - ٤١ من نظرات على شرح فى جوهرة التوحيد للمؤلف .

يرى ويسمع فى كل لحظة من لحظات حياته وفى كل مكان وأوان ، أيمكن لهذا لهذا الانسان - والأمر كذلك - أن يسرق وهو يعلم أن الله مطلع وأنه معه وراء ؟ أيزنى وهو يعلم أن الله يراقبه ؟

أيقتل وهو يعلم أن الله سيتولى قصاصة وحسابه ؟

وإيمان الإنسان بأنه ليس وحيدا فى هذه الحياة وأن الله معه يعتبر وقاية - يالها من وقاية - من كل ما يصيب الانسان بسبب وحدته وإنعزاله ، فلن يشعر الانسان بالعزلة وهو يعلم أن الله يأخذ بيده ويرعاه وما أصدق القائل .

ما أسهل أن يهزم الرجل الذى يقاتل بمفرده أما الرجل الذى يتخذ من الله سندا ونصيرا فممتنع على الهزيمة .

وأخيرا فإن الإيمان فى الإسلام بوجود خالق الكون يشمل القلب والعقل والوجدان ، بينما لا يقوم فى النظريات الفلسفية الاخرى إلا على الاجتهاد العقلى أو المصلحة فضلا عن الفارق فى النوعية والماهية بين إجتهاد مفكرين لا يخلون - مهما كانت عبقريتهم - عن شوائب النقص وعوامل العجز وانحرافات الميول والاتجاهات الذاتية والأهواء الشخصية ، وبين دين سماوى يرسم الحياة فى ظل مثل أعلى ويهدى الانسانية إلى النسق الذى ينظمها ويهذبها ويضمن شملها وينقى خبثها ويوجه الفرد إلى أن تأليه الله تعالى وإنكار الوهية من سواه يعنيان تحرير الفرد والمجموع من ألوهية الاهواء والتقاليد والطغيان .

فالله وحده هو الذى يملك حق التشريع الأصيل الذى لا يرد[1] [إن الحكم إلا لله] ، [ألا له الخلق والأمر] وكل من عداه محكومون بأصول دينه

---

(١) ص ١٧٢ الدين فى موقف الدفاع فتحى عثمان .

وشريعته [فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر]

والله وحده هو الذى لا يحاسب ولا يحاكم [لا يسأل عما يفعل وهم يسألون]

والله وحده هو المالك لخزائن السموات والأراضى ، لكن الناس محاسبون على تداول رزقه وفقا لشرعه [وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه] .

والله وحده هو الذى أراد أن تقوم على الأرض شريعة سماوية تعالج شئون الحياة على أساس من الاخوة الانسانية الحقيقية والمساواة والعدل والرحمة .

[ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين] .

إلا ما أبعد الفرق بين إلحاد أرضى ماركسى وبين إيمان سماوى إلهى ، وما أشد البون بين فكر ينكر الله وينكر معه الملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر وبين دين يردد أتباعه كل يوم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها قول الله تبارك وتعالى [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير] (١) وقوله جل جلاله .

[هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون] (٢)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى .

---

(١) البقرة : ٢٨٥
(٢) فاطر : ٣

سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد] (١) ؟

ولا شك أن الايمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب - هذا الذى ينكره الماديون - قد مد من نظر الانسان المؤمن فى أبعاد الكون وأقطار الأرض والسماء فشمل الأرض وما بعد الأرض فى تأمله وتفكره وشمل الدنيا فى توقعه وعمله وبذلك يتحقق توازن كامل وعادل فى توزيع طاقات الانسان الفكرية وفى توجيه نوازعه واهتماماته الاجتماعية والإنسانية والايمان بالبعث - ولا ريب - يكبح من جماح الانسان فى عدوانه على الغير بكثرة المال وسطوة الاستغلال ويسلس من ضراوة الشهوة فيه إلى تملك كل شيء حتى البشر وكرامتهم ومشاعرهم وعقولهم .

وهو مقابل ذلك يزيد الانسان شوقا إلى الخير وحماسا إلى الصلاح وسموا فى العمل وتطلعا إلى الثواب .

والايمان بالبعث والحساب يضعف من علاقة الانسان بالشيء لذاته - بينما يزيد من مسئوليته عن هذا الشيء من حيث حاجة المجتمع أو من حيث حاجته هو إليه وسط إخوة فى مجتمع هو مسئول فيه معهم أو مسئول فيه عنهم فى طريق طويل وكون متسع وزمن غير قليل ، والذى يسأله عن مواطنيه وأخوته - وهو الله - اقرب إليه من حبل الوريد وهو أعلم به وبما ينفعه من نفسه (٢) .

---

(١) فصلت : ٥٣

(٢) ص ١٩٢ الإسلام وقضايانا المعاصرة : أحمد موسى سالم دار الجيل بيروت طبعة ثانية .

إن الإيمان بالبعث والحساب هو القوة الدافعة والواعية التى تصد فى المجتمع الاسلامى خطر الإسراف وتكافىء بين الاخوه فى « القيمة الانسانية » بالحق والصدق بالواقع والوجدان ، من حيث إنهم وحدات واحدة أمام الله كما علمهم وهى بذلك تضاعف من نشاط الإنسان وتوضح رؤية الأمة المؤمنة لطريقها وأهدافها على المدى القريب والمسار البعيد على حد سواء وهذا كله ما تفتقده الماركسيه وتجحده وتنكره فى وقت واحد ومن هنا كما قلنا إن البعد - بين الماركسية والإسلام - شاسع والبون عظيم وأن الفرق رهيب بين الذين ينكرون الله ولا يذكرونه لحظه واحده فى حياتهم وبين [الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار](١) كذلك فإن الإيمان بالبعث والحساب - وهذا مالا تعترف به الماركسية - هما وسيلة احقاق الحق والتوقف عن الشرور فى السر والعلن وبدون هذا الايمان لا تستقر هيئة الاجتماع الانسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش . وذلك لأن العلة الغائية لأعمال الانسان هى نفسه . فإذا لم يؤمن بأن هناك ثوابا وعقابا فلا يوجد ما يحمله على تحمل الفضائل والابتعاد عن الرذائل - وخصوصا - إذا كان فى مأمن من الناس (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) الرد الدهريين جمال الدين الأفغانى ترجمة الامام محمد عبده نشر فؤاد الطرابلسى سنة ١٩٤٧ م ص٧٢ .

الإسلام ومادية الحياة

قلنا إن ماركس لا يعترف بإله لهذا الكون وفى الوقت نفسه يؤمن بمادية الحياة وأن الطبيعة موجودة وجوداً أزلياً .

وقبل أن نتحدث عن موقف الإسلام من مادية الحياة نسارع أولا بالقول بأن عقيدة ماركس بأن المادة لابداية لها ولا نهاية ، قد إنهارت من أساسها وذلك على أثر الأبحاث والتجارب العلمية فى القرن العشرين كما أن الاعتراف بالروح هو الاتجاه العام لكثير من الفلاسفة والمفكرين اليوم .

فقد أثبتت الأبحاث والتجارب التى قام بها العلماء « لوى دى بروليى » و « بورت » و « هيزنبرج » و « بور » وغيرهم .

١ — إلى أن المادة بعد أن كانت تفسر فى القرن التاسع عشر بأنها مكونة من جواهر فردة أو ذرات لا تنقسم إنتهى بها الأمر الآن إلى أن أصبحت تفسر على أنها موجات غير مادية ولا تمثل إلا احتمالات .

٢ — إذا كانت المادة فى القرن التاسع عشر — عصر ماركس — فى نظر علماء الطبيعة لا تفنى ، فقد تغير أمرها بعد التجارب العلمية فى القرن العشرين .

فإذا كانت المادة المحسوسة المكونة فى أصلها من موجات لا مادية فإنها تصير أيضاً إلى لا مادية وبذا تفنى .

كذلك — وهذا من بدهيات العلم الحديث أيضاً — أن المادة يمكن تفتيتها إلى ذرات أشد صغراً وهكذا تستمر عملية التفتيت حتى تنتهى المادة إلى طاقة وعند ذلك تخرج المادة من نطاق الحس كله وتتحول إلى غيب من الغيوب لا أحد يعرف كنهه .

ومادام الأمر قد وصل فى تحليل المادة إلى الوصول بها إلى موجات لامادية وقد اعتبرت المادة مكونة من هذه الموجات يجوز لنا أن نقول بكل ثقة وصدق إن المادة تصير إلى عدم وبالتالى فإنها توجد من عدم وبهذا بطل زعم ماركس بأن المادة لا بداية لها ولا نهاية .

ومن هنا فقد هاجم العلماء فكرة عدم تلاشى المادة التى يؤمن بها ماركس ومن يدور فى فلكه .

وها هو عالم الطبيعة « جورج بوهن » يقول فى رسالة له أسماها تطور المادة .

إن عقيدة عدم تلاشى المادة أحدى العقائد القليلة التى أخذها العلم العصرى عن العلم القديم بدون أن يغير فيها شيئاً . فمن عهد الشاعر الكبير « لوكريس » الذى جعلها أساس فلسفته إلى « لا فوازيه » الخالد الذكر الذى أقعدها على قواعد اعتبرت أبدية لم تكابد هذه العقيدة أى تزعزع ولم يفكر أحد فى أن يجادل فيها فاستحق الدكتور « جوستاف لو بون » لقبا من المجد لانه أول من هاجم هذه النظرية التى يسميها « عقيدة » وتوصل إلى أسقاطها فى سنين معدودة » ويقول « جوستاف لو بون » فى أثناء محاضرة ألقاها عام ١٩٠٧ . إن علم الأمس كان مؤسساً على أبدية المادة ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها للفناء وسيكون غرضه الأول إيجاد وسائل سهلة لزيادة إنحلالها ووضعه بذلك تحت تصرف الانسان قوى يكاد لا يكون لها حد » .

وكأن هذا الرجل يقرأ صحف المستقبل فقد حدث ما توقعه فعلا وإنحلت المادة - بعد التجارب العلمية فى القرن العشرين - إلى لا شيء وأدت نتائج الأبحاث إلى سقوط فكرة الجوهر الفرد ولم يصبح هذا الجوهر آخر ما تنقسم إليه المادة بحيث لا ينقسم هو بل إنحل إلى شعاع وأوشك الأشعاع أن يدخل فى حساب الحركة المجردة التى يرصد جانب منها بالحساب ويدق جانبها الأكبر ن الحساب والتخمين .

وبذا يمكن القول ـ كما سبق ـ بتلاشى المادة ولا يجوز بعد ذلك الأصرار على أنها باقية لا تتلاشى ولا تفنى .

ولم يكتف العلماء بهذا بل أخذوا يتجهون إلى إثبات الروح وها هو « الفرد روسل والس[1] » .

ويقول فى كتابه خوارق العصر الحاضر .

« لقد كنت ملحداً ابحتا مقتنعاً بمذهبى تمام الإقتناع ولم يكن فى ذهنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها، ولكن رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب فإنها قهرتنى وأجبرتنى على أعتبارها حقائق مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدة طويلة . ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلى شيئاً فشيئاً ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضا على صورة لا يمكن تغليلها بوسيلة أخرى .

ويقول « ماريت ستانلى كونجون » :

إن هذا الكون الذى نعيش فيه لا يمكن أن يكون مادة صرفا وإنما هو مادة وروح أو مادة وغير مادة . ولا نستطيع أن نصف الأشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها لقد حمل المفكرون لواء الاتجاه الروحى بدءاً من الفيلسوف الفرنسى « مين دى بيران » ومروراً بالفلاسفة الفرنسيين «دافيسون» و«لاشليه» و« بوترو » و «بلوندل» ووصولا إلى الفيلسوف برجسون المتوفى عام ١٩٤١م

---

(١) كان هذا الرجل مفرطا فى ماديته وقد توصل إلى نظرية النشوء والارتقاء مع داروين .

والحائز على جائزة نوبل للسلام فى الأدب ووسام الصليب الأكبر من الحكومة الفرنسية من أجل جهودة فى رفع شأن الروحية ضد المادة .

لقد هاجم برجسون نظرية التطور التى جعلت كل مكونات الانسان مادية خالصة وأنكرت التفكير المجرد والنفس المعنوية .

كما هاجم علماء النفس الماديين بأنه قرر مبدئياً التفرقة بين نوعين من الظواهر .

١ ـ ظواهر حسمية مادية .

٢ ـ وأخرى نفسية روحية .

ثم ينتهى برجسون إلى إثبات استقلال الجانب النفس الروحى فى الإنسان وتأكيد وجوده بعكس ماقرره الماديون ويرى أن الروح هى الجوهر الحقيقى للانسان وأنها هى الأصل الذى انبثق منه الوجود المادى نفسه لقد كان الماديون يردون الظواهر النفسية الروحية إلى أصول حسمية مادية فقلب برجسون الوضع ورد الوجود المادى كله إلى أصل روحى خرج منه وتطور عنه إن كتل السديم اللا نهائية العدد والتى يتكون منها الكون كانت فى أصلها أبخرة وغازات مختلفة تكثفت وتحولت إلى مادة جامدة ، ولازالت عشرات غيرها تتكثف حالياً وسيظل الوجود فى حركة مستمرة وعلى هذا فالوجود أنبثق ـ كما يرى برجسون ـ من مركز روحى أساسى هو الله وفاض عنه على هيئة قذائف وباقات مستمرة فى حركتها الحية التى هى جوهر وجودها والتى تكثفت بعض أجزائها فى أشكال مادية ، ثم تطورت الكائنات الحية بعد ذلك أعتماداً على الطفرة أو الوثبة الحية التى تميزت بها عن الجماد والخلاصة التى وصل إليها هذا الفيلسوف .

أن المادة فى حقيقتها الاصلية مظهر روحى يتشكل فى أنواع مختلفة من الوجود ، والعالم كله يعيش فى ديمومة خلاقة وصيرورة مستمرة .

فهل يتصور عاقل – بعد ذلك – أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها كما يقول ماركس ؟ أو هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟

لاشك أن الجواب سوف يكون سلبا ، بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع له المادة المعروفة التي وجدت قبلها .

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن له أبداية .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد على وجه التقريب .

وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لا بد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن أخلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس للمادة أو لعنصر المصادفة بينهما مكان .

لا أريد بعد كل هذه الحقائق التي تثبت وجود الروح والتي تثبت كذلك خطأ الاعتقاد الماركسي في مادية الحياة – لا أريد أن أقف طويلا على رأي الإسلام أو موقفه من مادية الحياة فقد أعلن القرآن الكريم هذه الحقائق منذ أربعة عشر قرنا من الزمان والتي توصل إليها هؤلاء المفكرون في وقتنا المعاصر .

لقد أعلن الإسلام أن الكون كله من خلق إله قادر عليم حكيم وفي القرآن الكريم نقرأ قول الله تبارك وتعالى :

[ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل] .

خلق الأشياء كلها تستدعي - دون شك - أن الله جل جلاله موجود قبل هذه الأشياء وأنه سبحانه أوجدها كلها من العدم المحض .

كذلك نقرأ في كتاب الله تعالى : [هو الأول والآخر] :

وهذه الآية الكريمة تثبت - كذلك بلا ريب - أن الله تعالى : قبل كل شيء بلا إنتهاء فهو جل شأنه سبب وجود الأشياء جميعاً وهو منشئها من لا شيء ومعنى ذلك أن لا أولية لشيء ولا أبدية لشيء كذلك .

وها هو الرسول الكريم يقول :

[كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض] .

ويقول الإمام الغزالي :

إن العالم محكم في صنعته مرتب في خلقته ، فلا بد أن يكون صانعه قادراً ، لأن من رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان متخلفاً عن غريزة العقل متحركا في سلك أهل الغباوة والجهل ويقول الشيخ محمد الغزالي .

العالم ومافيه من سكون وحركة أثر القدرة الله سبحانه وتعالى ليس لشيء ما قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويداً رويداً لتستوى على سوقها فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن غادية رائحة لاتهدأ حتى تثور فذلك لا تحسبن شيئا في الكون قادراً بنفسه فكما أن القدرة أبدعته أولا من عدم ، فقد أودعت فيه من أسرارها وبثت فيه من آثارها ما يدل عليها .

ولا ينكر أي إنسان مايشاهده من التغير الملازم للمادة والذي دفع المؤمنين

الموحدين إلى الاستدلال بهذا التغير عندما قالوا المادة إما أن تكون جوهراً (قائماً بذاته) أو عرضاً [وصفاً طارئاً قائماً بالجوهر] وكل من الجوهر والعرض متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر (بالمشاهدة) إذ لا تخلو مادة من صورة ما ، ولما كانت الأعراض كلها متغيرة فقد لزم أن تكون الجواهر كلها متغيرة(١) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التغير الذى طرأ على المواد من صورة إلى صورة ، ولفت النظر إلى وجوب استخلاص العبرة منه فقال تعالى :

[الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعف وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير] (٢) .

كذلك يقرر الإسلام وجود الروح وان الله تبارك وتعالى أورد قصة خلق الإنسان وتكوينه من جسم وروح وتحت تقرأ جميعا قول الحق جل جلاله .

[إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه روحى فقعوا له ساجدين] (٣) .

وتقرأ قول الله تعالى :

[ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا] (٤) .

وقد ثبت أن الإنسان جسم وروح بعد التجارب القاسية التى بدأت بصورة

---

(١) المقاصد للتفتازانى – الالهيات . (٢) الروم : ٥٤ .
(٣) سورة ص : ٧١ – ٧٢ .
(٤) الإسراء : ٨٥ .

منتظمة قوامها العلم عام ١٧٤٦ بدار الندوة بمدينة واشنجتون بأمريكا وفى انجلترا عام ١٨٦٧ فى المجمع العلمى الذى تأسس لهذا الغرض فى لندن وفى فرنسا عام ١٨٥٧ ،

ولقد تقدمت العلوم الروحية فى العصر الحديث تقدما كبيراً وأصبح هذا هذا العلم على معترف به فقد عقد مجلس جامعة لندن البحث الروحى جلسته الأولى فى ٦ مايو ١٩٣٣ وضم معظم أساتذة الجامعة ، وقد تقدم الدكتور « هنتجر » الذى يحمل أرق الشهادات العلمية فى العلوم الطبيعية والكيماوية والهندسية الكهربائية برسالة لنيل درجة الاكتوراه فى الفلسفة ، عام ١٩٤٠ وكان موضوعها أعمق المواضيع الروحية وعنوان الرسالة [القوه فوق المدركة].

وكان أساس هذا كله دراسة ماقرره القرآن الكريم من وجود روح للانسان وبهذا يبطل الوهم الماركسى من إنكار للروح ومن ماديه الحياة وخاصة وأن ماركس أخذ من نظرية التطور التى جاء بها دارون نقطة إرتكاز لمذهبى المادى ونحن نعلم أن هذه النظرية قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات ولم يثبت العلم إلى الآن صحتها بل على العكس من ذلك كلها مربها الزمن كلما زادها ضعف على ضعف .

وهكذا نجد تهافت الفكر المادى الماركسى وسقوط صاحبه فى أعماق الرزائل وذلك لانه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركة يلهث ، ولم يرفع رأسه نحو السماء ، ولو كان قد فعل لارتفع إلى سمو الإنسانية وهى تتجه إلى الواحد الأحد .

ذلك أن الإنسان كما يقول العقاد قد ارتفع حين رفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة وحين أصبحت حاجته إلى المعبود شيئا أرفع من مطالب

الأبدان وضرورات الغرائز والطباع (١) .

وأخيراً فإن مما يدعو إلى الغرابة والعجب أن الماركسيين وهم ينكرون الروح وينكرون معها أو قبلها وجود الله - مصدر كل شيء - لا يعتمدون فى هذا إلا على أن الروح وخالقها لا يقعان تحت حس أو مشاهدة .

مع أن إنكار وجود مالا يدرك بالحس يتعارض مع النتائج العلمية حيث أثبت العلم وجود أشياء كثيرة حولنا ولا يدركها الحس ومن بين هذه الأشياء مثلا الميكروب الذى لا يرى إلا بالميكروسكوب .

إن أنكار وجود الله - وهو أساس المذهب المادى الماركسى - يتعارض مع النتائج العلمية الحديثة ، ذلكم أن العلم الحديث لا يزال يؤكد كل يوم وجود قوة مدبرة لهذا الكون - قوة خالقة غير مرئية والعلم الحديث يثبت - كذلك -

---

(١) أنظر ص ٥٥-٥٦ ج١ من كتاب على أطلال المذهب المادى محمد فريد وجدى

ص ٥٠ وما بعدها من الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه د . محمود عثمان

ص ٢٩ وما بعدها من الماركيته فى مواجهة الدين د . عبد المعطى بيومى

ص ١١ من الله للعقاد ، ص ١٢٠ الفلسفة القرآنية للعقاد .

ص ٤٢ من الايدلوجيات والفلسفة العلمية المعاصرة فى ضوء الإسلام ، أنور الجندى

ص ١٥٠ - ١٥٦ من نشأة الفلسفة العلمية ريشنباخ ترجمة د . فؤاد زكريا

ص ٦٨ من عقيدة المسلم الشيخ محمد الغزالى

ص ٦٧ من المذاهب الفلسفة المعاصرة سماح رافع محمد

ص ٥٢ من نور الحى القيوم : أحمد عبد المنعم الحلوانى

ص ١٨٤ - ١٨٥ من الله والعلم الحديث : عبد الرزاق نوفل

ص ٧٢ من الرد على الدهر بين جمال الدين الافغانى نشر فؤاد الطرابلسى سنة ١٩٤٧ م

أن هذا العالم له بداية وهذا يعنى أن له خالقا ، فقد ثبت علمياً أن كفاءة عمل الكون تتناقص يوماً بعد يوم ، وإن حرارة الكون تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وإذا كان الأمر كذلك فيسأتى يوم ينتهى فيه هذا العالم .

وبالاضافة إلى ذلك فإن علم الفلك يقرر أن الكون يزداد إيساعاً يوماً بعد يوم ، وأن الأجرام السيارية تتباعد باستمرار وبسرعة ، فالكون يتمدد ويتسع بسرعة أكثر من حجمه عشر مرات منذ بدايته وفى هذا مصداق لقوله تبارك وتعالى :

[والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (١)] ونحن نستخلص من هذا نتيجتين .

النتيجة الأولى :

أن الكون كان شيئاً واحداً ثم تباعدت أجزاؤه بعضها عن بعض ـ وهذا يعنى بالتالى أن له بداية وأن له خالقاً يقول تعالى :

[أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون (٢)] .

النتيجة الثانية :

أنه كلما إزداد إتساع الكون ضعفت الجاذبية حتى تتلاشى فتخرج الاجرام عن أفلاكها ويصطدم بعضها ببعض وبهذا ينتهى الكون (٣) . يقول تعالى :

[إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب إنتثرت ، وإذا البحار فجرت وإذا

---

(١) الذاريات : ٤٧ .

(٢) الأنبياء : ٣٠ .

(٣) الفكر الماركسى د . صفوت مبارك .

القبور بعثرت (١)] .

فالعلم الحديث إذن يهدم من الأساس المذهب المادى الذى ينكر وجود الله الخالق ويزعم أن المادة هى التى أوجدت نفسها ، يقول تعالى :

[أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون (٢)] .

---

(١) الانفطار : ١ - ٤ .
(٢) الطور : ٣٥ - ٣٦ .

الإسلام والكون

إن الإسلام يعترف بالمادة كما يعترف بالروح ، بل ويهتم الإسلام بالمادة إهتماماً كبيراً ويوجه الإنسان إليها ويدفعه لاستغلالها والانتفاع بها على أنها أثر لقدرة الله الذى أوجدها من العدم وليس كما يزعم ماركس بأنها أزلية أبدية لا تفنى ولا تتلاشى وأن منها كل شيء وإليها كل شيء .

فمادية الإسلام ربانية مؤسسة على الإيمان بالخالق الأعظم الذى أبدع الكون ويديره ويدبره وينسق جزئياته وكلياته ويجعل القانون الذى يسير الذرة الصغيرة فى الأرض هو نفس القانون الذى يسير المجرات الكبيرة فى السماء ذات الملايين من النجوم والأثقال والأبعاد والأسرار .

وماديتنا تعقد بين النفس الفردية وبين خالقها أوثق الصلات من العبادة له والخضوع إليه والرجاء فى جنته والخوف من ناره والرحمة منه والسلام من لدنه فتملأ فراغها بالطمأنينة على مكانها خلال الحياة الدنيا وعلى مصيرها بعد الموت .

والصورة الفكرية لدى المسلمين عن الخالق جل جلاله صورة علمية مستمدة ألوانها وأصباغها من كلماته التى لا عدد لها فى الطبيعة ، إذ أن الطبيعة فى رأينا هى كتابه الصامت المكتوب بالأعمال والقوانين والبدائع ، وقرآننا هو كتابه الناطق المترجم عما فى ذلك الكتاب الصامت فلا يناقض ما فى الطبيعة ولا يكذبها وليس فى العلم إلى الآن حقيقة واحدة ثابتة تناقض ما ورد فى القرآن من نصوص فى خلق الكون والنفس والحياة وها هو يقول [قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض] ويقول [تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا] .
من أين يأتى التناقض ؟

ومن أين يأتى التفاوت ومنزل الكتاب هو خالق الطبيعة ؟

ومن هنا فإننا نقرر أنه ليس هناك مذهب من مذاهب الفكر الخالص

الصحيح يستطيع أن يوجه الإنسان إلى فيم الطبيعة ومعرفة أعماق الكون إلا القرآن الكريم كتاب الإسلام العظيم .

فقد أحال إثبات قضايا ما وراء الطبيعة - الله وكلاته والملأ الأعلى - إلى قوة الحكم العقلى ولم يخضعها للحس وما يستلزمه من نقص وتصور وضيق .

كما أحال قضايا الطبيعة ودراستها ومظاهر المادة والوقوف على معرفة ظواهرها إلى قوة البداهة والحس ، فلم يشرد من الطبيعة ولم ينكرها ولم يسلط عليها مقاييس التجريد ولم يختبر وجودها بغير الحواس .

وأنه أعترف بما وراء الطبيعة إعترافه بالطبيعة ، وجعل المنطق الذى إستفاده الإنسان من تجاربه فى الطبيعة هو أبجدية المنطق الذى يدرك ما وراءها .

فنطق القرآن هذا منطق فاصل واضح فى وضع المؤمن بما وراء المادة ووضع الواقفين عند حدودها وهو منطق يكشف النقص المعيب والخطير فى الفلسفات المادية الالحادية الماضية والمعاصرة معاً تلك التى تزعم أنها وضعت العقل البشرى على مستقر ثابت ليس وراءه مستقر آخر .

ولقد نجح الإسلام نجاحاً منقطع النظير فى إيجاد العقل الكامل الذى جمع بين الإيمان بمادية الطبيعة وقيمها ، والإيمان بما وراء الطبيعة والقيم التى تليق به حتى إننا لم نجد من فلاسفة الإسلام القدامى من يجنح به التفكير إلى الخروج عن طريقة هذا الإيمان المزدوج بالمادة وبما وراءها وبالغايه الآلهية التى تسيطر على عالم الخلق وعالم الأمر وعالم الغيب .

فالكندى وابن سينا والفارابى وابن رشد والبيرونى وغيرهم من فلاسفة الإسلام العقليين المشارقة والمغاربة كلهم إن لم يكونوا من بناة الإسلام عن طريق العقل فلم يكونوا من عاولى هدمه ، وقد إكتملت فيهم صورة الحلقة المفقوده ذات العقل الإنسانى المنشود الذى يؤمن بالدين علماً وبالعلم دينا وتلتقى فيه كتابات العقل الثلاث : التأمل والأثبات والأعتقاد .

وتعليل وجود ذلك النوع من العقل المتكامل هو أن فلاسفة المسلمين كانت في أذهانهم الصورة الكاملة للكون بماديته وما وراءها وقد وضعها القرآن الكريم في أذهانهم بأسلوبه العلمي الاستقرائي أو الاستنباطي البليغ وجعلهم على فطرتهم التي تستجيب أول ما تستجيب للجانب المادي في الكون وأعاجيبه وقيمه ثم تنتقل من هذا الجانب إلى الاستدلال به على وجود الخالق المنشىء وعلى علمه وقدرته وسائر صفاته .

وقد أباح القرآن للمسلمين العمل في الطبيعة والتلذذ على مشاهدها وعلومها وقوانينها ، بل أوجب عليهم ذلك ولم يغلق أي باب من أبواب الطبيعة دون جهودهم العلمية والعملية ، بل جعل خصوصية الإنسان التي ينفرد بها عن غيره من المخلوقات ـ النبش والبحث في كل شيء واستخراج أسراره وتسجيله في علم البيان والتعبير .

أنهم إيقنوا أن القرآن لو لم يكن دينا موحى به من عالم الغيب لكان المذهب العقلي الوحيد الذي يفر إليه الفكر ويأنس به ويحتمي فيه من وطأة الفراغ والشك والإنكار والحرج والضيق [١] .

الإسلام والإنسان :

إن الإسلام لا ينظر للإنسان نظرة الماركسية إليه على أنه مادة فقط بل يعترف الإسلام بالواقع البشري كما هو في حقيقته ـ جسد وروح وعقل ـ ويضع له الحدود التي تمنع عنه الضرر فرداً مستقلا في ذاته وفرداً مشتركا مع غيره

---

(١) أنظر ص ٥٥ وما بعدها من المادية الإسلامية وأبعادها عبد المنعم محمد خلاف ، دار المعارف بمصر .

فى المجتمع . ويقيم داخل نفسه إرادة واعية يوكل إليها ضبط الشهوات وتنظيم متصرفاتها ، وينشىء من هذه الارادة ضميراً حيا يرتفع بالنفس عن مهاوى الشر ومهابط الحيوان إلى آفاق مشرقة رحيبة ويبيح التمتع بالطعام والشراب ويحق الفرد فى أن يزاول نشاطه فى حدوده المعقوله التى لا تؤذى المجتمع ولا تؤذى الفرد ذاته فى الوقت نفسه [كلوا من طيبات مارزقناكم] [قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبادة والطيبات من الرزق] [ولا تنسى نصيبك من الدنيا] وبهذا يكون الإسلام قد استجاب لكل رغبات الإنسانية وقدم لها جميع ما تطلبه من غذاء فأشبع الجسد وأتاح للعقل أن ينشط وقدم للروح غذاءها الروحانى من العقيدة وما يتبعها من عبادات تقرب بين المخلوق والخالق كل ذلك فى تناسق عجيب يجعل كل منها جزءاً من الآخر متمماً له مساعداً عليه فالعبادة جسد يتحرك وروح تتسامى (١) .

وبذلك يكون الاسلام قد شمل كل النشاط الانسانى شمل نوازعه الفطرية ونزعته إلى العلو والارتفاع شمل ماديته وروحانياته ووازن بينها بحيث لا يطغى منها شيء عن حده الطبيعى وهذا هو — فى نظرى — التفسير السيكلوجى لقول الرسول الكريم [الاسلام دين الفطرة] .

أنه الدين الذى يتمشى مع مطالب الفطرة السليمة ويعالجها بخير طريقه يمكن بها إستغلال كل المواهب البشرية وتوجيهها إلى الصراط المستقيم ، إنه الدين الذى يهدى أتباعه إلى الخير فى الأمور المادية والروحية .

إنه لا يهمل الخير الروحى كما أنه لا يهمل الخير المادى بل يهدف لجعل الحياة جديرة بأن يحياها الناس ويعلمنا بأن العالم بكل ما فيه من خير للانسان وهو

---

(١) ص ١٢٠ الإنسان بين المادية والإسلام محمد قطب .

يغرى الانسان بالسمى الجـــاد وراء حياة نبيلة وأن يصبح عضواً نافعا فى المجتمع[1] .

وهذا كله ماتفتقده للفلسفة الماركسية ولهذا اتجهت إلى الجانب المادى فقط من الانسان وركزت على مطالب الجسد فحسب دون الروح وليتها نجحت فى هذا أيضاً .

(١) صـ ٥٨ الإسلام والاشتراكية تأليف ميرزا أحمد حسين ترجمة عبد الرحمن أيوب المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة .

الفرية الكبرى

والفرية الكبرى التى نريد مناقشتها الآن هى الاتجاه العدائى الماركسى للدين حيث يقول « لينين » الماركسية هى المادية وهى من ثم معادية للدين ومن قبل يقول ماركس .

إن الدين أفيون الفقراء أو بعبارة أخرى له الدين أفيون الشعوب .

وماركس يقصد بهذا : أن الدين مخدر للفقراء والمظلومين ليناموا على ظلمهم ويرضوا بفقرهم ويحلموا بالجنة والحور العين بينما يستمر الأغنياء على ثراهم تاركين الفقراء فى أوهامهم فى انتظار هذه الجنة الموعوده .

وقبل أن نبطل بالدليل هذه الفرية الكبرى ونثبت ـ بالدليل أيضاً ـ أن الأديان ما نزلت من السماء إلا لتحرير الانسان من الخرافات والأوهام ـ نرى أن ماركس عندما قال قولته هذه لم يكن يعنى بالتحديد كما تصور إلا الأشكال والطقوس المبتدعة فى أوروبا التى انحرفت عن الدين الصحيح والتى قامت بها هذه الجماعات التى تواطأت مع الملوك لإقتسام الأموال والسلطة ، أو حاربت الملوك لإنتزاع الأموال والسلطة والتى ابتعدت بذلك كثيرا عن جوهرا لدعوة الإلهية وسط تلك المعارك الجدلية العنيفة التى ثارت فى القرن التاسع عشر بين المذهب العقلى والدين ، بين رجال اللاهوت والكتاب المقدس فى جانب ، ورجال العلم والمختبر فى الجانب الآخر .

كان الكاثوليك متهمين من قبل العلمانيين بأنهم بقيادة البابا يحجرون على التقدم العلمى الذى تنهار بتقدمه السدود على الحرية أمام الجماهير .

وكان البروتستانت متهمين من قبل الاشتراكيين بأنهم يصمتون على الجرائم الاستعمارية البشعة .

وفى مثل هذا المناخ المشتعل بالسباب السياسى وصراخ الآلام الاجتماعية وضوضاء وجلبة اللصوص من رجال الصناعة ، وضجيج الصراع والتناطح بين السلطة والثورة والدين ، بين الدولة والكهنة والنقابات والعلماء لم يكن متوقعا — أن يجد كارل ماركس أو أصدقاؤه وهو يؤسس فكر المادة الجدلية ، والمادية التاريخية — حافزا النظر فى كتاب المسلمين (القرآن) ولو من خلال ترجمة [١] مغايرة للاصل أو شروح استشراقية بعيدة عن الصواب .

ومع ذلك فإن ماركس وهو يقرأ تاريخ الأديان ، وتاريخ العرب والعبرانيين سأل نفسه هذا السؤال الهام والذى لم يستطع الاجابة عليه أو لم يجد حافزا لبحثه بذهنه المتوقد ففى إحدى رسائله إلى إنجلز عام ١٨٥٢ وهما يتبادلان الفكر فى لحظة عابرة عن العرب والعبرانيين والاسلام قال ماركس مقررا هذه الملاحظات :

١ — فى زمن محمد جرى تعديل كبير فى الطريق التجارى بين أوربا وآسيا وكانت المدن الدينية التجارية التى كان لها دور كبير فى التجارة مع الهند تعانى حالة من الانهيار التجارى [٢] .

٢ — بالنسبه للدين فإن السؤال هو لماذا يبدو تاريخ الشرق العربى وكأنه تاريخ الدين ؟

لم يمض ماركس بعيدا فى استنتاجه ولم يحدد إجابة واضحة ، فالأمر بمنطقة لا يهمه كثيرا .

ولكن إنجلز يحاول فى عملية التبادل الفكرى بالرسائل أن يضع إجابة

---

(١) كان القرآن الكريم قد ترجم إلى الألمانية المعنى .

(٢) يريد أن يربط بين ما يسميه ثورة محمد والعوامل الاقتصادية .

لأسئلة ماركس عن الدين فيقول فى رسالة منه فى مايو سنة ١٨٥٢ إن الأسفار اليهودية المقدسة لم تكن أكثر من تسجيل التقاليد العربية القديمة منها والقبلية ثم يقول :

يبدو أن العرب حيث استقروا فى الجنوب الغربى كانوا متحضرين مثل المصريين والآشوريين كما تبرهن على ذلك تلك المبانى التى شيدوها ، وفيما يختص بدين محمد فإنه ابتداءاً إلى النقوش القديمة فى الجنوب حيث كانت التقاليد العربية القديمة والقومية الموحدة ما تزال سائدة فإن ثورة محمد الدينية كانت رد فعل وعودة للقديم والبسيط [١] .

إن هذه الأفكار البسيطة عن الإسلام ومحمد الدين والعودة إلى القديم البسيط تدل على أن الفكر الماركسى كان ولا يزال خاليا من حقائق كثيرة عن الدين الحق وعن تعاليم هذا الدين العظيم .

فكيف يزعم ماركس عن الإسلام وهودين من الأديان بأنه مخدر للفقراء أو أنه أفيون الشعوب ، وكما يقولون إن فاقد الشىء لا يعطيه ، فكيف يعطى ماركس هذا الحكم وهو من أجهل الناس بالإسلام ؟ لأن الحالة الوحيدة التى اقتصر عليها ماركس فى دراسته للدين هى القرون الوسطى فى أوربا قبل عصر النهضة حين امتزجت بقايا المسيحية المحرفة بالأفلاطونية الحديثة على أيدى رجال الدين الذين احتكروا قراءة الكتب المقدسة وتفسيرها وحظروا على الناس محاولة فهم الوحى وفرضوا عليهم آراء الكنيسة على أنها الوحى المنزل الذى لا يجوز الخروج عليه بحال من الأحوال وساندوا سلطة الاستبداد وقاسموا الملوك الطغاة الثراء والضياع الواسعة خاصة تلك الضياع التى كانوا يجبونها من بيع صكوك

---

(١) انتهت أقوال إنجلز ثم انظر ص ٢١٠ من الإسلام وقضايانا المعاصرة .

الغفران ، وكان كل ذلك على حساب الكادحين من عامة الناس [١]

فكيف يعمم ماركس حكمه على جميع الأديان ، وهل يمكن لإنسان أن يحكم على الأديان من فعل بعض المنتسبين إليها حتى ولو انحرفوا عن مبادئها النبيلة ونبعها الصافي الأصيل ؟ وهل يمكن لإنسان أن يحكم على هذه الأديان من تطبيق خاطىء وفي مرحلة واحدة من مراحلها المختلفة ؟

اعتقد أن هذا مالا يقول به عاقل يحمل ذرة واحدة من التفكير ، فكيف بماركس الذي يدعى الفكر الصائب والمنطق السليم والذي أعطى لنفسه الحكم بإلغاء أعظم مكسب للإنسانية جمعاء ألا وهو رسالات السماء التي أصلحت فساد الأخلاق وقومت معوجها وهذبت النفوس وهدتها من ضلال البشر وحمتها من التفكير المنحرف الخاطىء وأصلحت الحياة الاجتماعية وعلمت الناس الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في كل شيء وأقامت العدل في الدنيا وحكمت بالقسط بين الناس وأخذت بيد الإنسانية إلى الحق والخير والجمال والفضيلة وأنقذتها من حمأة الرذائل وأخرجت الناس من الظلمات - ظلمات العقائد .

وظلمات الأخلاق وظلمات الأعمال - إلى النور : نور الإيمان ونور الخلق الكريم ونور العمل الصالح وتركت الأديان للإنسانية .

الأنبياء كمثل أعلى وقدوة صالحة يتبعها السوقة ويعمل بها الملوك وإن مثل الأسوة بهم كمثل عين ثرة فياضة تروى البلاد وتسقى العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ويرتوى بمائها العذب الزلال كل ظمآن فيبلغ غايته [وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم] .

---

[١] انظر ص ٧٩ د . عبد المعطى بيومى : الماركسية في مواجهة الدين . وأحمد موسى سالم في الإسلام وقضايانا المعاصرة ص ٢١٠ .

ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده] (١) .

وفي هذه الآيات ترون أن الله تعالى ذكر طائفة خاصة وسمى فيها بعض الذين بعثهم - برسالات السماء - لهداية الناس وفوض إليهم أمر إصلاح المجتمعات، فهم الشفاء لمرضى القلوب ، وبهم البرء لسقام النفوس ، وهم هداة الغاوين ، الآخذون على أيدي الطغاة والمرشدون لأهل البغي ، والناهون عن المنكر ، وهم الطائفة الخيرة التي عم هديها وجاد فيئها جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس كلهم بنور هؤلاء الرسل في مختلف الأزمنة وشتى العصور وأن الذي تراه في الأمم من الخير والصلاح وكرم الخلق وحسن العمل وطهارة السيرة وعلو النفس وزكاء الروح ونزاهة القلب إنما هو قطرة من بحر تعاليم الأنبياء ولمحة من جمال شرائعهم وأثارة من بركات سيرتهم وأن الانسانية القلقة المتألمة لا تزال تفتقد آثارهم وتحرص على إتباع سنتهم وكريم تعاليمهم ليذهب بذلك روعها ولو أن الناس اتبعوا ما جاءت به الأديان واستقاموا على الطريق لساد الوئام بين الأمم ورفرفت السعادة على الدول وعم الخير البلاد والعباد وانتشر السلام في العالمين ترى - بعد كل هذا - أنصدق زعم ماركس الأكبر بأن الدين مخدر الشعوب ؟

---

(١) الأنعام : ٨٣ - ٩٠ .

وهل علم ماركس ما فعله دين الاسلام فى العرب هؤلاء الذين كانوا فى معزل عن العمران ، يعبدون الأوثان ويعكفون على الأصنام وكانوا فى جاهليه عمياء ؟

فما بالهم انقلبت أحوالهم وتغيرت شئونهم بفضل هذا الدين ؟

إن أرضهم لا تزال هى الأرض وسماءهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير فكيف إنجلى عنهم ظلام الجهل وكيف نفخ فيهم ذلك الأمى روح الدين الحق فأصبح جاهلهم عالما وعاريهم مساكا وفقيرهم غنيا وماذا علمهم حتى انقلب الفاسد صالحا والمفسد مصلحا والذى لم يحسن شيئا لم يلبث أن صار يدير الملك ويصرف شئون الحكومة ويسوس أمور الرعايا وكيف نبغ منهم ذوو العقول الراجحة والآراء السديدة والأفكار الثاقبة ؟ وكيف أقام هذا الدين - إن كان أفيون الشعوب - للأمة العربية - التى لم تكن الأمم تقيم لها فى كفة السياسة العالمية وزنا - دولة ذات عظمة ومجد وجلال واكتشف فى نفوس رجالهم كنزا من القوة لا ينفد .

وكيف جعل هذا الدين من هذه الأمة - التى لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته - عبادا ناسكين يحيون الليل بذكر الله تعالى ويبلغون رسالاته ويسعون فى طلب الرزق فى النهار .

هل علم الملحدون الماديون وعلى رأسهم ماركس حالة الفقر التى وصل إليها العرب قبل الاسلام والتى نقرأ فى سيرة ابن هشام تصوير جعفر بن أبى طالب لها أمام النجاشى وهو يقول مفرقا بين الإسلام والجاهلية .

[كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لتوحيده

ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، فعدا علينا قومنا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادكم) .

وهذا ما اعترف به أيضا وفد عمر بن الخطاب إلى كسرى حين عيرهم ملك فارس بفقرهم فقال الوفد .

[كنا نأكل الضفادع والحيات والعقارب والجعلان فكان هذا طعامنا ، وكانت بيوتنا ظهور الأرض ، وكنا نلبس ما نغزله من وبر الإبل وصوف الغنم .

وكان أحدنا يقتل ابنته مخافة أن تشاركه طعامه وشرابه .

وها هو القرآن الكريم يصور حالة العربي عندما يبشر بفتاة لاعتقاده أنها لا تستطيع الحصول على قوتها بقوة ساعدها .

[وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون] (١)

ومن هنا جاء نهى القرآن الصريح لهم أيضا بقوله .

[ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم] (٢) .

---

(١) النحل : ٥٨ - ٥٩ .
(٢) الأنعام : ١٥١ .

[ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم] (١) .

لقد وصل المجتمع العربي إلى هذه الحالة الخطيرة من الفقر المدقع دفعت معها البعض إلى قتل فلذات أكبادهم والتنكر لأسمى عاطفة إنسانية في الوجود كله وهي عاطفة الأبوة والبنوة ، ولعل السبب من وراء هذا كله هو نظرة إزدراء واحتقار ، فقد كان العربي يرى العز والشرف والفخر في أن يسترخي خالداً إلى الأرض أو جالساً على أريكة ، أو متكئاً في خيمة عند عين ماء نابعة أو قرب بستان ومعه زوجته وأولاده وأن يرى العبيد يكدحون في خدمته والعمل بين يديه .

فماذا فعل الاسلام عندما أشرق فجره ووجد ما تعج به الحياة من بطالة وأوهام وخرافات وظلم وبغي وطغيان ؟

لو كان هذا الدين أفيون الفقراء لأبقى الوضع على ما هو عليه ، ولكن الاسلام أعطى طاقات الانسان لا حدود لها وضع أمامه العلاج الناجح والبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع فبدأ العربي ومجتمعه بل والانسانية جمعاء تستيقظ على دعوة الناس جميعاً إلى العمل [وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون] (٢) .

لقد اهتم الاسلام منذ أربعة عشر قرناً بالعمل أكثر من أي مذهب حديث ، فقيمة الانسان محدودة بعملة بغير زيادة أو نقص ، وليس عشيرته ولا لونه ولا لسانه الذي يزيد من قيمته شيئاً أكثر من العمل الذي يقوم به فالعمل هو وحده القياس الوحيد لطول المجتمع الاسلامي وعرضه وارتفاعه جماعة وأفراداً ،

---

(١) الاسراء : ٣١ .
(٢) التوبة : ١٠٥ .

والعمل هو طرق التقدم ووسيلة فى هذا المجتمع الذى تتجاوز حدوده وغايات العمل به هذا العالم الصغير القابل للزوال فى أى لحظة ، بل يمتد العمل بالانسان مع غاية هذا المجتمع إلى هدف أسمكى من موضع باق فى ذلك العالم الخالد الكبير الذى يسعى إليه وهو الجنة التى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

إن الانسان فى الاسلام لاقيمة له إلا بعمله حتى إيمانه لا قيمة له بغير العمل.

لذلك حرم الاسلام الربا لانه كسب بلا عمل وحرم الإستغلال بكل صوره لانه إنتقاص لحقوق يكتسبها البشر بالعمل وحرم أكل أموال الناس بالباطل لهذا المعنى أيضاً ومن هنا كان للعمل فى القرآن الكريم مكانة مرموقة وإنه العمل يقسم للحياة ويستجيب لمطالبها ، ويتجدد معها وبها ، عمل يشمل شئون الخدمات الانسانية كلها ووسائل الانتاج وتطوير أدواتها وهو فى الوقت نفسه ينظم طاقات الامة ويوجهها نحو الهدف الكبير وهو يشمل الإعداد لملاقاة العدو وتطوير القوة وتصاعدها لتردع أعداء الله وبهذا كله يكون العمل فى خدمة الحياة وصناعة الحضارة ويكون مع هذا عملا حسنا هادفا صالحاً متقناً مجوداً [إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (١)] .

والرسول يقول : [إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه] والقرآن يقول : [ولكل درجات مما عملوا] (٢) .

ومع هذا كله فالعمل فى شريعة الاسلام شرف وكرامة وحياة مارسه الانبياء ونهض به العظماء [أعملوا آل داود شكراً] وكان الرسول يقول لاصحابه [إنى لا

---

(١) الكهف : ٣٠ .
(٢) الاحقاف : ١٩

أحب أن أجلس وأنتم تعملون] وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيذ من من العجز والكسل ويحث أصحابه على العمل ويربت على كتفهم ويقول لأحدهم - عندما يجد فى يده أثر العمل - تلك يد مباركة بارك الله فيها كما فعل مع على بن أبى طالب رضى الله عنه عندما علم أنه كان يعمل فى الماء والطين وأن معه تمراً نظير هذا العمل فقال الرسول الكريم ناولنى تمرة من هذا الكسب الطيب وشد على يده ودعا له وطيب خاطره ولم يكتف رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم بدفع أتباعه إلى العمل دفعاً بمثل قوله

[ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده](١)

وإنما ضرب المثل لأصحابه فى ميدان العمل فعمل تاجراً وراعياً للغنم وشارك أصحابه فى بناء المسجد وحمل التراب وكان الصحابة يرددون : لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا الفعل المضلل وكان يقاسمهم العمل ويختار أكثره صعوبة وكان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويكون فى عمل أهله ذلكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان تطبيقا حيا لتعاليم القرآن الكريم وكان يدرك أنه سيرته الطاهرة لن تكون أسوة للناس ما لم تكن أعمال صاحبها - الذى يؤسس دينا ويدعو الناس إليه - مثالا وأنموذجاً لما يدعو الناس إليه ولا يتطرق الشك إلى الناس بأن ما يدعو إليه هو ما يعمل به ومن السهل أن يدعو الداعى إلى فلسفة تحظى بإعجاب الناس وإلى فكرة يستحسنونها أو نظرية جديدة فى الحياة تروق لهم وكل ذلك مما يقدر عليه كثير من الناس متى شاءوا وأين شاءوا أما الذى لا يستطاع دائماً فهو عمل الدعاة بما يدعون إليه ، وليست الأفكار الصحيحة والنظريات الشائقة والأقوال الحسنة هى التى تجعل الانسان إنساناً كاملا وتجعل من حياته أسوة للناس ومثلا أعلى فى الحياة ، بل أعمال الداعى وأخلاقه هى التى تجعله كذلك ، ولولا ذلك

---

(١) رواه البخارى .

لما كان هناك فروق بين الخير والشر ولما تميز الصالح من غيره ، ولامتلأت الدنيا بالمزورين والمنافقين الذين يقولون مالا يفعلون ولعل أصدق مثال لهذا الصنف الأخير هو ماركس نفسه الذى كان يقول مالا يفعل ويدعو إلى العمل بينما هو يعيش عالة على أصدقائه وأسرته حتى سخرت منه والدته عندما قالت كان أفضل لكارل لو جمع شيئاً من رأس المال بدلا من أن يؤلف المجلدات عن رأس المال ، كما أرسلت إليه - عندما ضاقت به - تقول :

إنك الآن فى الرابعة والعشرين فاعتمد على سعيك فى كسب الرزق ولا تنتظر بعد اليوم مدداً نقطعه لك من قوت أهلك (١) .

أما أتباع محمد ﷺ فإنهم مع تعلمهم من فعله فإنهم كانوا يحفظون ماجاء به عن ربه [يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلوا] (٢) .

وكانوا كذلك يذكرون قول الرسول : من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له . ومن هنا ندرك كيف أعاد المسلمون للحياة العدالة والإنسانية والحرية وللجميع الخير والحب والتعاطف حتى أصبح الجميع كما أراد لهم نبيهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وذلك بفضل قـــوة الدين الذى جاء به الرسول من رب السماء والأرض .

يقول العقاد :

إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقاته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته

(١) أنظر ص ٣٦ من هذا الكتاب .
(٢) الصف : ٢ - ٣ .

المطلوبة عمن حوله ولو كانوا من أقرب الناس إليه ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الأخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين لأن هذه القوى إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام.

أما الدين فرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ومن علانية وسر، ومن ماض أو مصير إلى غير نهاية بين آزال لا تحصى في القدم وأباد ولا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيب.

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين، أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن ركين، وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة وفرد معطل الضمير مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو إليه، فهذا الفارق بين الجماعتين وبين الفردين، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها وشجرة مجتثة من أصولها، وقل أن ترى إنساناً معطل الضمير على شيء من القوة والعظمة إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطل والحيرة (١).

ويقول صاحب كتاب «ماركسية القرن العشرين» (٢).

---

(١) ص ٢٠ - ٢١ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : العقاد.
(٢) روجيه جارودي السكرتير السابق للحزب الشيوعي الفرنسي نقلا عن د. عبد المعطي بيومي ص ٩٢ الماركسية في مواجهة الدين.

[فالقـــول بأن الدين في كل زمان ومكان يصرف الإنسان عن العمل والـكفاح ، يتناقض تناقضاً صارخاً مع الواقع التاريخى]

وهكذا شهد شاهد من الشيوعيين بأن القول بأن الدين يخدر الإنسان ويصرفه عن العمل يتناقض مع التاريخ وهذا خير رد على زعيم الفكر الماركسى الملحد .

يبقى — بعد ذلك — سؤال قد يجول فى خاطر بعض الناس وهو لماذا تحدثت عن الدين الإسلامى فقط ولم تتحدث عن غيره من الأديان ؟

وجواب على ذلك .

أولا : إن الدين الإسلامى هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأديان السماوية ومن ثم فهو الصيغة المناسبة للحياة المتطورة فى كل زمان ومكان .

ثانياً : إن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى تنطوى فيه تعاليم الأديان السماوية السابقة كلها

ثالثاً : إن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد كذلك الذى لم يتغير ولم يتبدل ولم يحرف والذى تعهد رب السموات والأرض بحفظ دستوره ـ القرآن الـكريم ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها عندما قال :

[إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] (١) .

رابعاً إن الشرائع التى نزلت من السماء قبل أن يعمل الإنسان يده فيها تتفق مع الإسلام ـ الذى حفظه الله من كل تغيير ـ بأنها دين واحد يقول القرآن الـكريم [شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه] (٢) .

---

(١) الحجر : ٩ .
(٢) الشورى : ١٣ :

ويقول الرسول (الأنبياء أخوة أمهاتهم شيء ودينهم واحد)(١) .

من أجل هذا أكتفيت بالحديث فقط عن بعض جوانب الإسلام معتقداً بأنه الممثل الصادق لكل أديان السماء .

وبعد : فلا يليق بماركس أن ينكر أن الدين كان أول مرسل لصوت الدعوة إلى العدالة بين الناس وأول منظم لأوان تنفيذها ، وأول مثير للشعور بالرحمة لبؤس البائسين والشعور بوجوب الانتصاف للمظلومين وأول دافع إلى قمع شح النفس وأول داع إلى سخائها وإيثارها وإلى بذلها مالها طواعية وإلزاماً للمحتاجين وأول مناد بالمساواة والإنصاف والإحسان والتعاطف والتراحم والمحبة والإخاء وأول محرر الإنسان من العبودية وأول منقذ للإنسان من ظلم الإنسان ، وكل ذلك من غير أن يصيب النفوس بأشد آفة من آفات الماركسية الملحدة وهو تفريغها من التفكير والاعتقاد في الله وصرف جهودها كلها إلى التفكير في هذه الحياة الدنيا وحدها مغلقة النوافذ الطبيعية التي في العقل والقلب ليتطلعا منها إلى أهم مسألة يرى الإنسان أنه ماجاء إلى الحياة إلا من أجلها وهي التعرف إلى سيد الكون جل جلاله .

ولو كانت مبادىء الإسلام معلومة لواضعي المذهب الماركسي لغيروا من نظرتهم إلى الدين ومعاداتهم له وما وجدوا ضرورة لتخريب حياة التدين وشجبها باعتبار الدين في زعمهم مبدداً للعقل ومخدراً للشعوب وصارفاً لجهادها وكفاحها لنيل حقوقها في سعادة الأرض قبل سعادة السماء .

ولعلموا أن الإنسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية وأنه في أشد الحاجة إلى معونة صوت الإيمان صوت الدين ليقوده في هذه الظلمة المخيفة التي تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه . . . إذ من ذا الذي يستطيع أن يقود الوجدان البشري إلا تلك القوة العليا التي تحيط بكل

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل .

شيء وتستطيع كل شيء؟ ثم أي جزاء هو أكثر رهبة في نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حياة طويلة لا يدرك مداها ولا يعرف منتهاها؟ وأى عزاء يسلى عن أحزان الحياة وآلامها أعلى من التفكير فى عدالة الله تعالى التى ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب [١] .

ولاد ركوا بوعى قول « روبرت ميلليكان » العالم الطبيعى الأميركى إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الاخلاق ولقد كان زوال هذا الايمان سببا للحرب العامة وإذا لم نجتهد الآن لا كتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية [٢] .

وقول الدكتور ويلسون الرئيس الاسبق للولايات المتحدة بأمريكا .

وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء ماديتها وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها ذلك هو الامر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رءوس أموالنا وكل فرد خائف من الله محب لبلده ، وقول الدكتور محمد عبد الله دراز .

إن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحد ، فليست كل مهمتها أنها المبعث القوى لتهذيب السلوك وتصحيح المعاملة وتطبيق قواعد العدل ومقاومة الفوضى والفساد ، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً فى كيان الجماعة ، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ، لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة [١] .

لقد أجمع العقلاء على ضرورة الاديان وحاجة البشرية إليها وتوقف سعادة

---

(١) ص ٩ - ١٠ د محمد غلاب : هذا هو الاسلام كتاب الشعب ٦٥

(٢) ص ١١٣ من كتاب الدين والعلم للمشير أحمد عزت باشا .

(١) ص ١٠١ من كتاب الدين د محمد عبدالله دراز الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٤ .

الإنسان وتقدم الشعوب وحضارة الأمم ورقى المجتمعات عليها ، واعترافهم بأن الأديان هى أعظم كسب للإنسانية جمعاء ، وأن الإنسان — لولا الدين — لكان أشبه بحيوان الغابات ، ذلكم أن التاريخ يقرر والشواهد تسجل والأرقام تنطق بأن بالدين ارتقت الإنسانية إلى أسمى مراتبها العقلية وإلى أوج عظمتها الأخلاقية وإلى أنبل صلاتها الإجتماعية ، وحقق الدين لها من السعادة والوفاق والوئام والألفة والمحبة ما لم يكن يخطر على قلب بشر أو يحلم به إنسان أو يقول به فيلسوف .

أفبعد هذا كله نصدق فرية كارل ماركس الكبرى بأن الدين أفيون الشعوب ؟؟

ثانية : الأكاذيب

وتلك أكذوبة أخرى لا تقل عن أختها السابقة إمعاناً فى الضلال وبعداً عن الحق وإفتراء على الله وسخرية بعقول الناس ، وأعنى بها ما تقوله الماركسية من أن عقيدة الإسلام محشوة بالأساطير الفارغه وأنها — فى زعمها — القوة المظلمة التى لا تزال تفسد العقول وحياة الشعوب وأن القرآن جاء لخديعة الجماهير الكادحة ومعنى ذلك أن الإسلام مشيد على كتاب محشو بالأساطير والخرافات بعيد عن العلم والحقائق والموضوعية ومن أجل هذا لا بد — فى رأى الماركسية — من محاربة الإسلام والقضاء عليه والتشكيك فى القرآن وفى من نزل عليه القرآن[1] .

ولكن هل القرآن جاء بالأساطير والخرافات ؟ أم أنه كتاب علم ونظام إلهى شامل كامل لكل نواحى الحياة وشئون الناس اشتمل على كل ما يحتاج إليه البشر من النظم الإدارية والثقافية والقضائية والإقتصادية والإجتماعية والمعاملات الدوليه وعلاقة المسلمين مع غيرهم فى الحرب والسلم معاً وصدق الله إذ يقول : [ما فرطنا فى الكتاب من شىء] ؟ ؟

وفى ردنا على هذا الزعم أو فى تفنيدنا لهذه الأكذوبة ان نرد عليهم بقول « ريناز »

إن القرآن هو أساس الإسلام وقد احتفظ بكينونته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف — وعندما نستمع إلى بعض آياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد — وبعد أن نتوغل فى دراسة روح التشريع التى تنطوى عليها بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعنا إلا أن نعظم هذا الكتاب العلوى ونقدسه — وقد دلتنى تحرياتى العلمية أنه لا صحة مطلقا لما أريد إلصاقه

---

(١) أنظر ص ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ من هذا الكتاب .

بالنبي محمد من كذب و إفتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية والعادات القومية التي أراد بعض المتحاملين أن يوجهوها إليه . . وهي إفتراءات ذميمة وقحة وأن التاريخ يثبت أمانته وصـــدقه ثم أردف ذلك ببيان أن هذه العصمة تخص القرآن وحده [1] .

ولا يقول الدكتور « موريس الفرنسي » .

[إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبني البشر وإنه كتاب لا ريب فيه] ولا يقول « هنري دي كاستري » .

إن القرآن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب ، ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته] . ولا يقول « الكس لوازون » :

[خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن وقوانين الطبيعة] .

ولا يقول « واشنطن إيرونج » .

[يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وأخلاصا] .

ولا يقول جوته — وهؤلاء جميعاً من علماء الغرب .

[إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية] [2] .

لا نرد عليهم أيضاً بما جاء في حديث معجزة القرآن][3] .

من أن القرآن دخل إلى عمق النفس البشرية لكي يظهر ما يخبئه الإنسان

---

(١) صـ ١٢٦ ، ١٢٧ طه مرور : بين الحضارات والديانات بتصرف .
(٢) أنظر صـ ٦٠ – ٦١ من كتاب الإسلام والعلم الحديث عبد الرزاق نوفل .
(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي .

ولا يبوح به ولا يعلمه إلا الله ، ومزق القرآن بعد ذلك حجب المستقبل القريب والبعيد فأنبأ عن أشياء لم يكن العقل يعتقد أنها ستحدث أو أنها يمكن أن تحدث ، . وتنبأ بنتائج حروب ومصائر شعوب ، وقال لنا إن الأرض كروية وكشف لنا علم الأجنة قبل أن يعرفه العالم كما تحدى البشرية فى أن تخلق ذبابة واحدة وأشياء لم نصل إليها حتى الآن ولا يقول العقاد :

[فالقرآن الكريم يطابق العلم أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة ، ثم يقول : وفضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم [1] .

ولن نرد ما جاء فى مقدمة كتاب من هدى القرآن [2] :

[القرآن بخصائصه وشموله وواقعيته أعظم دليل بين يدى الإنسان فى رحلة حياته الخاصة وبين أيدى البشرية كلها فى طريقها إلى الحق وإلى الخير] .

ولا نرد كذلك على هذا الزعم الملحد الأحمق — بنصوص رائعة من الكتب والمزاعات والمقالات العديدة التى ظهرت خلال أربعة عشر قرنا من الزمن وتناولت الاعجاز اللغوى والإعجاز العلمى والإعجاز البلاغى والإعجاز التبشيرى بل الإعجاز والإعجاز الموسيقى للقرآن الكريم لأن جميع أوجه الاعجاز التى ظهرت حتى الآن كانت — بدون إستثناء — مبنية على أراء شخصية قابلة للتفسير والتأويل وعرضه للطعن فيها بالميل إلى التحيز أو لهوى فى النفس .

نقول لا نرد بهذا كله مع أعتقادنا بأن كل هذا حقائق ثابتة واقعية وأن

---

(١) ص ١٢ الفلسفة القرآنية : عباس العقاد .

(٢) ص ٤ طبعة ثانية . تأليف الامام الأكبر الشيخ شلتوت . دار الكتاب العربى بالقاهرة .

القرآن الكريم معجز فى بلاغته وتراكيبه وعلمه وأسلوبه وما إلى ذلك ، ولكن نرد — على كل ضال مضل ومخادع كاذب ينكر أن القرآن الكريم من عند الله وأنه معجز وأنه كتاب حق يقول الله تعالى فيه . [إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً](١) — نرد الأول مرة بمعجزة مادية ملموسة لا تقبل الشك أو الجدال وليست عرضة للتفسير أو التأويل أو التضارب فى الآراء وتدل دلالة واضحة — لاريب فيها — على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من قول بشر وأنه — حقاً وصدقاً — رسالة الخالق سبحانه وتعالى إلى جميع الأمم والشعوب وأنه قد حفظ على مدى العصور والأجيال من أى تحريف أو تغيير ومن كان هذا شأنه وواقعه فكيف يأتى بأساطير وخرافات كما نزعم بذلك الماركسية ومن يدور فى فلكها الأحمر الملحد؟

وكيف تكون كلمة الله الأخيرة للانسانية وهدية السماء للبشرية قائمة على أوهام مابنة بالظلام المفسد لعقول الناس ؟ .

إن الحقائق تنطق والوقائع تشهد والتاريخ يسجل بأن القرآن هو النور الذى على هديه عرف الإنسان طريق الهدى والرشاد وأنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه تنزيل من الرحمن الرحيم .

[فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين](٢) .

أجل إن القرآن الكريم — بلا شك — من عند الله .

---

(١) الإسراء : ٩

(٢) الواقعة : ٥٧ — ٨٠ .

وهذا ما أثبته العلم الحديث فى القرن العشرين ، فقد كشفت العقول الالكترونية عن وجود نظام حسابى مذهل فى القرآن الكريم شاء الله سبحانه وتعالى أن يظل سراً خافيا لمدة أربعة عشر قرنا من الزمن لكى يتم أكتشاف العقول الالكترونية القادرة على كشف هذا النظام الحسابى المعجز ولكى يتبين البشرية كافة — وليس للدارسين فحسب — أن القرآن الكريم ليس فقط كتاب سماوى أصيل من الخالق عز وجل بل إنه أيضاً قد وصلنا سالما من أى تحريف أو تحوير أو زيادة أو نقصان .

وفيما يلى موجز هذا النظام القرآنى الدافع وليعرف القارىء الكريم أن هذه الدلائل جميعها عبارة عن حقائق مادية واقعية ملموسة .

١ — الآية القرآنية الأولى [بسم الله الرحمن الرحيم] تتركب من١٩حرف

٢ — القرآن الكريم يتركب من ١١٤سورة وهذا العدد يساوى ١٩ × ٦ .

٣ — أول مانزل من سور القرآن [سورة العلق — هى السورة رقم ١٩ من آخر القرآن .

٤ — أول مانزل من سور القرآن [سورة العلق] تتركب من ١٩ آية .

٥ — عدد الحروف التى تتركب منهم سورة العلق ٢٨٥ أى ١٩ × ١٥ .

٦ — عندما نزل جبريل عليه السلام بالقرآن لاول مرة أحضر معه ١٩ كلمة بالضبط هى « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

٧ — هذه الكلمات آل ١٩ . . أول ما نزل من القرآن تتركب من ٧٦حرفا وهذا العدد [٧٦] يساوى عددحروف البسملة مضروبا فى عدد كلماتها (١٩ × ٤) .

---

(١) الواقعة . ٧٥ - ٨٠

٨ — عندما نزل جبريل عليه السلام بالوحى فى المرة الثانية أحضر الآيات الأولى من سورة القلم حتى قوله تعالى : [ودوا لو تدهن فيدهنون] أى ٣٨ كلمة (١٩ × ٢) .

٩ — عندما ما نزل جبريل عليه السلام المرة الثالثة أحضر الآيات الأولى من سورة المزمل حتى قوله تعالى : [وأهجرهم هجراً جميلا] أي ٥٧ كلمة (١٩ × ٣) .

١٠ — عندما نزل جبريل بالوحى المرة الرابعة أحضر الآيات الأولى من سورة المدثر حتى الرقم ١٩ نفسه حيث يقول الحق عز وجل (عليها تسعة عشر).

١١ — عندما نزل جبريل بالوحى المرة الخامسة أحضر سورة الفاتحة التى تبدأ بالتسعة عشر حرفاً [بسم الله الرحمن الرحيم] وكانت الفاتحة هى أول سورة كاملة ينزل بها الوحى الأمين عليه السلام . . . وهكذا فإن الرقم ١٩ المذكور فى القرآن الكريم فى سورة المدثر نزلت بعده مباشرة آل ١٩ حرف [بسم الله الرحمن الرحيم] مما يثبت العلاقة الوثيقة بين البسملة والرقم ١٩ وإثبات أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر كما تعلمنا سورة المدثر .

١٢ — يعلمنا خالقنا عز وجل فى سورة المدثر أن أى شخص يقرر أن القرآن الكريم من قول البشر (الآية ٢٥) فإن الله سبحانه وتعالى سوف يبرهن لهذا الشخص أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر بواسطة الرقم ١٩ (الآية ٣٠) .

١٣ — يعلمنا خالقنا عز وجل فى الآية (٣١) من سورة المدثر أسباب إختيار الرقم ١٩ وأنها خمسة أسباب : [وما جعلنا عدتهم] أى الرقم ١٩ — إلا :

(أ) فتنة للذين كفروا .

(ب) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب [أن القرآن من عند الله] .

(ﺟ) ويزداد الذين آمنوا إيمانا [فنحن نؤمن قبل ظهور هذه المعجزة القرآنيه أن القرآن من عند الله ، ولكن إيماننا لا شك يزداد بمعرفه هذه الحقائق الاعجازية] .

(د) ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون [أى نزول كل الريب والشكوك] .

(ﻫ) وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا .

١٤ — يعلمنا خالقنا عز وجل أن هذه المعجزة القرآنية المبنية على الرقم ١٩ [ذكرى للبشر] الآية ٣١ من سورة المدثر وأنها [أحدى الكبر] الآية ٣٥ .

١٥ — كل كلمة من كلمات البسمله تتكرر فى القرآن الكريم كله مضاعفات الرقم ١٩ :

(أ) كلمة « اسم » تتكرر فى القرآن الكريم كله بالضبط ١٩ مرة .

(ب) كلمة « الله » تتكرر فى القرآن ٢٦٩٨ مرة = ١٩ × ١٤٢ :

(ﺟ) كلمة « الرحمن » تتكرر ٥٧ مرة وهذه العدد = ١٩ × ٣ .

(د) كلمة « الرحيم » تتكرر ١١٤ مرة وهذا العدد = ١٩ × ٦ .

١٦ — القرآن الكريم يتركب من ١١٤ سورة وكل سورة تفتتح بالبسملة ما عدا سورة التوبة ، وهذا يعنى أن القرآن يحتوى على ١١٣ بسملة ولما كان العدد ١١٣ ليس من مضاعفات الرقم ١٩ ، ولما كان هذا النظام الحسابى الاعجازى لا بد وأن يكون نظاماً محكما فقد تم تعويض البسملة الناقصة فى سورة النمل الآية ٣٠ .

١٧ — لكى تعثر على البسملة الغائبة من سورة التوبة عليك بترقيم سور القرآن الكريم مبتدئا عند سورة التوبة رقم ١ ، ثم سورة يونس رقم ٢ وهكذا فعندما تصل إلى الرقم ١٩ تجد سورة النمل التى تحتوى على بسملتين ، البسملة الافتتاحية والبسملة فى الآية ٣٠ .

١٨ — عدد الكلمات بين البسملتين فى سورة النمل ٣٤٢ كلمة وهذا العدد = ١٩ × ١٨ .

١٩ — عدد الأرقام المذكورة فى القرآن الكريم (أربعين ليلة ، سبع سماوات ، أربعة أشهر وعشرا . . . الخ) ٢٨٥ رقما وهذا العدد (٢٨٥) يساوى ١٩ × ١٥ .

٢٠ — مجموع الـ ٢٨٥ رقم الموجودة فى القرآن الكريم يساوى ١٧٤٥٩١ وهذا المجموع من مضاعفات الرقم ١٩ حيث يساوى ١٩ × ٩١٨٩

٢١ — بعد إزالة الأرقام المكررة فى القرآن أى يؤخذ ٤٠ واحدة سبعة واحدة وهكذا نجد أن المجموع بدون المكررات = ١٦٢١٤٦ يساوى ١٩ × ٨٥٤٣ .

٢٢ — يتميز القرآن الكريم بوجود الحروف القرآنية فواتح السور مثل «ألم» ، «طسم» ، «كهيعص» الخ وهذه ظاهرة يختص بها القرآن فلا نجدها فى أى كتاب آخر فى أى مكان ، وقد اتضح أن هذه الحروف القرآنية فواتح السور ترتبط إرتباطا وثيقا بالنظام الحسابى القرآنى المعجز الذى نراه هنا ، بل إنها تشتمل على الجزء الأعظم من هذه المعجزة القرآنية المذهلة ، ويظهر هذا الارتباط لأول وهلة إذا علمنا أن هناك ٢٩ سورة تفتتح بهذه الحروف وأن عدد الحروف التى تدخل فى تركيب الفواتح ١٤ حرف وأن عدد الفواتح أيضاً ١٤ فاتحه فإذا جمعنا ٢٩ + ١٤ + ١٤ نجد المجموع ٥٧ = ١٩ × ٣ .

٢٣ — مما يدل على أن الحروف القرآنية فواتح السور تشتمل إعلى الجزء الأعظم من هذا النظام الحسابى القرآنى ، أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا فى ثمانى سور أن هذه الحروف تشتمل على «معجزات» القرآن الكريم . وهذه السور الثمانى (الآيات الأولى هى : يونس ، يوسف ، الرعد ، الحجر ، الشعراء ، النمل

القصص ، ولقمان . . . علما بأن القرآن الكريم يستعمل كلمة « آية أو آيات » للمعنى « معجزة أو معجزات » - (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وأن كلمة « معجزة أو معجزات » لم تستعمل فى القرآن الكريم بتاتاً .

٢٤ — بدراسة سورة « ق » اتضح أنها تحتوى على ٥٧ حرف « ق » وهذا يساوى ١٩ × ٣ .

٢٥ — هناك سورة واحدة أخرى تفتتح بالحرف [ق] وهى سورة الشورى (حم عسق) وبدراسة هذه السورة اتضح أنها تحتوى على نفس العدد من الحرف [ق] - (٥٧ أى ١٩ × ٣) رغم أن سورة الشورى أطول بكثير من سورة [ق] .

٢٦ — سورة [ق] تحتوى على ٥٧ [ق] وسورة الشورى تحتوى على ٥٧ [ق] فإذا جمعنا ٥٧ + ٥٧ نجد المجموع ١١٤ يساوى عدد سور القرآن الكريم ، علما بأن سورة [ق تبدء بقوله تعالى] ق والقرآن المجيد] فإذا كان الحرف [ق] يرمز للقرآن فإن هذه الظاهرة الاعجازية تعلمنا أن إل ١١٤ سورة هى القرآن كل القرآن .

٢٧ — إن السورتين الوحيدتين فى القرآن الكريم اللتان تفتتحان بالحرف [ق] تحتويان على نفس العدد من الحرف [ق] - (٥٧ و ٥٧ فى كل من سورة ق وسورة الشورى) .

واتضح من دراسات الكمبيوتر أن هاتين السورتين هما الوحيدتان اللتان تحتويان على هذا العدد من الحرف [ق] - (٥٧) فكأن الله سبحانه وتعالى يعطينا إشارة بوضع الحرف [ق] فى بداية هاتين السورتين لاثبات أنه سبحانه وحده الذى يعرف عدد حروف كل سورة من سور القرآن الكريم .

٢٨ — من الأمثلة التى توضح للعالم أن كل كلمة . بل حرف فى القرآن

الكريم قد وضع بتصميم إلهى وإحكام يفوق طاقات الإنس والجن أن الآية (١٣) من سورة « ق » تقول [وعاد وفرعون وإخوان لوط] ويلاحظ هنا أن الناس الذين كذبوا لوط عليه السلام يسمون « إخوان لوط » فى حين أنهم يسمون دائماً « قوم لوط » حيث ذكروا فى القرآن ١٣ مرة وفى كل مرة يسمون « قوم لوط » ماعدا سورة « ق » فإنهم يسمون « إخوان لوط » هذا هو الاستثناء الوحيد ، ويتضح لنا فى الحال الإحكام الإلهى فى اختيار كلمة [إخوان] فى سورة « ق » بدلا من كلمة « قوم » إذ أن استعمال كلمة « قوم » يؤدى إلى زيادة عدد الحرف « ق » فى سورة « ق » فيصبح المجموع ٥٨ بدلا من ٥٧ والرقم ٥٨ طبعا ليس من مضاعفات الرقم ١٩ كما أن الـ ٥٨ « ق » فى سورة « ق » تصبح مختلفة عن الـ ٥٧ « ق » فى سورة الشورى ، وأيضاً مجموع الـ ٥٨ والـ ٥٧ يصبح ١١٥ وهذا لايساوى عـــدد سور القرآن الكريم ، وبمعنى آخر ينهار كل هذا النظام الحسابى الدقيق بتغيير كلمة واحدة « قوم » بدلا من « إخوان » وهكذا يصلنا البرهان الدامغ على أن القرآن الكريم .

أولا : لايمكن أن يكون من قول البشر ، وأنه حقاً وصدقاً رسالة الخالق جل وعلا إلى جميع المخلوقاته

وثانياً : أنه قد وصلنا تاما كاملا دون أدنى تحريف أو زيادة أو نقصان .

وثالثاً : أنه والأمر كذلك لا يمكن أن يشتمل على شىء من الخرافات أو الأوهام أو الأساطير كما تزعم الماركسية الملحدة .

ورابعا : يتبين كذلك أن هذا النظام الحسابى المعجز يتراوح فى عظمته بين البساطة المتناهية التى تناسب أبسط الناس تعليما وبين التشابك والتوافق والتكامل الذى يحتاج إلى العقول الالكترونية ويناسب أكثر الناس علما .. وعلى ذلك

فإن هذه المعجزة القرآنية الرائعة تشابه القرآن الكريم فى عظمته التى تناسب أبسط الناس وأيضا أكثر الناس علما وثقافة(١) .

ويتبين لنا بعد دراسة هذا النظام الحسابى القرآنى المذهل لماذا يؤكد الله عز وجل أن هذه المعجزة الحسابية « إحدى الكبر » سورة المدثر ٣٥ - ٣٧ [كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر .

كما يتبين لنا أن هذا النظام الحسابى يقدم للعالم أجمع ولأول مرة دليلا ماديا ملموسا على أن القرآن الكريم من عند الله رب العالمين نزل به الوحى الأمين على أمير الأنبياء وسيد المرسلين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وينقذ البشرية من الضلالة والغواية إلى صراط الله العزيز الحميد فلا يعقل - والأمر كذلك - أن يشتمل هذا الكتاب الكريم على شىء مما تزعمه الماركسية الملحدة حيث حفظه الذى يعلم السر والعلن من كل تحريف أو تغيير أو تبديل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)(٢) .

---

(١) انظر ص ١ - ٤ معجزة القرآن الكريم د . رشاد خليفة إمام مسجد توسان ولاية أريزونا بأمريكا .

(٢) المائدة : ١٥ .

الاقتصاد الإسلامى

لقد وضع الاسلام نظاما إقتصاديا يمكن عن طريقه تحقيق الخير للإنسانية والوصول عن طريقه طريقه إلى التقدم والرفاهية الحقيقية بسهولة ودون معوقات ، وسيجد العالم إطارا صحيحاً يضع فيه حلا لمشكلة التخلف الاقتصادى ، وذلك إذا أخذنا فى اعتبارنا ما يرتبط بهذه الأصول الاقتصادية الاسلامية من أصول خلقية وسياسية تشترك مع هذه الأصول الاقتصادية فى تحقيق رسالة الاسلام فى المجال الاقتصادى الذى يقوم على أساس معتدل فلا يتعصب للفرد على حساب الدولة ولا يتحمس للجماعة على حساب الفرد ، فهو يحاول أن يحقق مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على حد سواء ، ولا يخرج هذا الرأى عن رأى الاقتصاديين الجدد الذين يحملون اليوم راية المدرسة الكلاسيكية بثوبها الجديد فى إنجلترا والدول الاسكندناوية [١] .

فالفرد هو محور النشاط الاقتصادى كله إلا أن الدولة قد رسمت له الاطار الذى يتحرك داخله ، والذى لا يجوز أن يتعدى حدوده حرصا منها على مصلحة المجتمع فى مجموعه وحتى لا يختـــل التوازن بين مصلحة الفرد فى حريته ومصلحة المجموع .

فالإنسان – فى الفكر الاسلامى – يتكون من عنصرين أو شطرين هما المادة والروح لكل منهما مطالب ينبغى أن تؤدى بشرعه الانصاف والاعتدال ، إذ لو أسرفت المادة فى أمرها لألحقت الانسان بالحيوان ، ولو أسرفت الروح

---

(١) المبادى الاقتصادية فى الإسلام د . على عبد الرسول (مقدمة) دار الفكر العربى .

فى أمرها لجعلت الانسان سلبيا أو إنعزاليا لا يصلح لتنمية أو تقدم الكون العريض الواسع .

والدين الاسلامى يعطى المادة حقها من الرعاية والعناية فيدعو إلى السعى والعمل والكسب والانتاج ، وهو فى نفس الوقت يعطى الروح ما تستحقه كذلك من العناية والرعاية فيدعو إلى الفضيلة والعبادة والخشية ومكارم الأخلاق وبذلك يوفق بين مطالب الحياة الأولى ومطالب الحياة الآخر والاسلام العظيم المنصف العادل قد وضع من ضوابط الحياة وقواعد الاقتصاد ما يصلح أن يكون نعم الرائد على الطريق المؤدى إلى التنمية الاقتصادية ورفع المستوى معيشة شعوبنا الاسلامية التى طالما قاست وتقاس من تخلفها عن ركب الحياة المدنية حياة العدد والآلات والالكترونات وثورة التكنولوجيا الحديثة يقول الله تعالى [لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز](١) .

والحديد هو المادة الأساسية لأغلب الصناعات التى تؤدى إلى التقدم وإزالة أسباب التخلف .

ويصبح من واجبنا اليوم كمسلمين ـ إن كنا حقا نؤمن بأن الاسلام دين شامل للحياة ـ أن نؤمن بالتالى بأن لهذا الاسلام مذهبه الاقتصادى المستقل والمتميز عن غيره من المذاهب ـ وأن نعمل جاهدين على إبراز هذا المذهب وإخراجه للناس ولن يقتنع هؤلاء به ما لم يروه مطبقا فعلا فى بلاد المسلمين ومن الغريب أن يدرك لفيف من العلماء الأجانب هذه الحقيقة ويظل كثير من المسلمين غافلين عنها .

---

(١) الحديد : ٢٥ :

يقول الأستاذ جاك أوسترى وهو واحد من علماء الاقتصاد الفرنسيين البـــارزين .

إن طريق الأنماء الاقتصادى ليس محصورا فى المذهبين المعروفين الرأسمالى والاشتراكى ، بل هناك مذهب إقتصادى ثالث راجح هو المذهب الاقتصادى الاسلامى (١) .

ويرى هـذا الرجل أن هـذا المذهب سيسود عالم المستقبل لأنه أسلوب كامل للحياة .

ويؤكد المستشرق الفرنسى رايموند شارل أن الاسلام يرسم طريقا متميزا للتقدم فهو فى مجال الانتاج يمجد العمل ويحرم كافة صور الاستغلال ، وفى مجال التوزيع يقرر قاعدتين « لكل تبعا لحاجته » كحق إلهى تكفله الدولة لكل فرد « ولكل تبعا لعمله » مع عدم السماح بالتفاوت الشديد فى الثروات والدخول (٢) وذلك لأن شريعة الاسلام قد أعلنت الايمان بالإنسان الكلى وبالفرد وكرامته وقيمته وكفلت حقوقه الفكرية . والمدنية والمالية والسياسية ودعت إلى تأمين حاجاته المادية التى تستأثر بشعوره وفكره وخاصة فى أول دخوله للحياة وتفتح فهمه وتصوره للدين تبعا لها ، وغرست فى نفوس الجماهير الايمان بالحق المعلوم للسائل والمحروم وأن الفقر كاد أن يكون كفرا وأن جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشىء وترجمت عن تطلعات المجتمع الاسلامى وغيظه من الفقر بلسان أحد خلفائه الراشدين من أهل بيت النبى الكريم هو « على بن أبى طالب » بقوله .

---

(١) انظر الاسلام والتنمية الاقتصادية ترجمة نبيل صبحى الطويل دار الفكر دمشق ـ وراجع كذلك د محمد شوقى الفنجرى : المدخل إلى الاقتصاد الاسلامى ص ٢٠٥ .

(٢) الدكتور الفنجرى ص ٢١١ من المرجع السابق .

[لو كان الفقر رجلا لقتلته] وبلسان خليفة آخر «عمر بن الخطاب» بقوله :

(لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من فضول أموال الأغنياء وردتها على الفقراء) وكان رسول الله ﷺ يستعيذ من غلبة الدين وهو مظهر من مظاهر الفقر وأثر من آثاره المدمرة فيقول .

[اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال] (١) فما كان للاسلام وهو دين العقل والحكمة والحياة أن يفوته إدراك أن المسألة الاقتصادية حينما يختل أوضاعها وتفسد مقاييسها ويضطرب ميزانها تكون كالأفعى التى تنهش قلوب الأفراد والجماعات وتسممها وتمزقها بالصراعات وتردها إلى حياة الغابة والافتراس (٢) .

مميزات الاقتصاد الاسلامى

نحن نعلم أن النظام الاقتصادى الماركسى يقوم أساسا على .

(ا) إلغاء الملكية الفردية الخاصة (٣) .

(ب) اعتبار أن الوضع الاقتصادى هو المحرك الوحيد لموكب البشرية فى كل الميادين ، فالوضع الاقتصادى لكل مجتمع هو - فى رأى الماركسية - الذى يحدد أوضاع هـــذا المجتمع السياسية والاجتماعية بل وعقيدته الدينية . يقول كارل ماركس :

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) ص ٣٩ المادية الاسلامية وأبعادها عبد المنعم محمد خلاف دار المعارف بمصر .

(٣) انظر ص ٦٤ من هذا الكتاب .

[فى الانتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها وهى مستقلة عن إرادتهم ، وعلاقات الانتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية فى الانتاج الكلى لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع وهو الأساس الحقيقى الذى تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتى تطابقها أشكال محدودة من الوعى الاجتماعى ، فأسلوب الانتاج فى الحياة المادية هو الذى يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة ، ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم (١) .

ويقول إنجلز :

[تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى وهو أن الانتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقدم عليه كل نظام اجتماعى . لحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا فى عقول الناس أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل ، وإذن فعلينا ألا نبحث عن هذه الأسباب فى الفلسفة وإنما فى إقتصاديات العصر الذى نعنيه] (٢) .

كل شىء إذن هو انعكاس للحقيقة الموضوعية الوحيده فى هذا الكون وهى العامل الاقتصادى ، والاقتصاد ليس صادراً عن إرادة الانسان وإنما هو كما يقول ماركس خارج عن إرادته وله قوانينه الموضوعية الخاصة التى ليس للانسان إزاءها حول ولا طول فهى تسير إلى غايتها المحتومة ، وتؤثر فى الانسان فى أثناء تطورها ، ولكن الانسان لا يؤثر فى قيامها ولا فى بدئها أو إنهائها.

---

(١) ص ٦٨ دراسات فى الاجتماع ترجمة الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم .
(٢) ص ١٢٠ النظام الاشتراكى ترجمة د راشد البراوى .

لأن ذلك كله يجرى حسب سنة التطور التى لم يخلقها الانسان وإنما خلقتها الطبيعة أم الانسان (١) .

(جـ) تفصل الماركسية نظامها الاقتصادى عن الدين كلية :

ونحن حين نتحدث عن مزايا الاقتصاد الاسلامى لا نريد أن نضع مقارنة بين نظام اقتصادى ماركسى من نتاج الفكر الانسانى فى ظروف خاصة وفى بيئة معينة لا يمكن تطبيقه فى كل زمان ومكان وبين نظام اقتصادى إسلامى من وحى السماء وضعه الذى أتقن كل شىء صنعه والذى يعلم ما يسعد الانسان وما يشقيه كما ويمكن تطبيق هذا النظام فى كل زمان ومكان .

نقول ليس هدفنا مقارنة بين نظام ونظام فإن هذه المقارنة تعطى النظام الاقتصادى الماركسى أكثر من قيمته وتجعله أكبر من حجمه ونجعله بصورة أو بأخرى فى مواجهة نظام إقتصادى ربانى صالح لكل بيئة وكل وقت وهذا غير مقبول ولا معقول وإنما هدفنا فى هذه الدراسة الموجزة للاقتصاد الاسلامى أن نوضح بأن النظم الاقتصادية الانسانية كلها الماركسية منها والرأسمالية وغير ذلك مما نبع من فكر الانسان القاصر ـ قد عجزت عن تحقيق السعادة للانسان وتحقيق مجتمع الكفاية والعدالة بينما نجح الاقتصاد الاسلامى فى هذا كله مع ارتباطه التام بالدين عقيدة وشريعة ـ وهذا لعمرى أعظم ميزة لهذا الاقتصاد ـ فبينما الاقتصاد الوضعى ـ بسبب ظروف نشأته ـ قد انفصل تماما عن الدين (٢)

---

(١) ص ٦٦ الانسان بين المادية والاسلام محمد قطب . دار إحياء الكتب .

(٢) يرجع الانفصال بين الدين والفكر الاقتصادى إلى العصور الوسطى راجع أريك رول : تاريخ للفكر الاقتصادى ترجمة د . راشد البراوى القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٩ وما بعدها وانظر ص ١١ وما بعدها من مذكرة التربية الاسلامية كلية إعداد المعلمين بالرياض .

فإن الإقتصاد الإسلامي يرتبط أساساً بدين السماء ذلكم أن النشاط المادي في الإسلام يتحول إلى عبادة يثاب المسلم عليها إذا ابتغى بنشاطه ذلك وجه الله سبحانه وتعالى وانصرفت نيته إلى مرضاته وإلى سعادة المجتمع الاسلامي ومصداق ذلك أن بعض الصحابة رأى شابا قويا يسرع إلى عمله ، فقال بعضهم « لو كان هذا في سبيل الله » فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان .

ويستفاد من هذا الحديث الشريف أن النشاط الإقتصادي ـ شأن أي نشاط آخر ـ إذا تحررت فيه النية وخلص القصد تحقق فيه معنى العبادة سواء في ذلك أكان النفع للفرد أم كان النفع للمجتمع وهذا المعنى يتجلى بوضوح كبير في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرويه عنه أبو هريرة [أن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لو جدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ، قال أما علمت أنه أستطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لو جدت ذلك عندي ، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ، قال إستسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لو جدت ذلك عندي[1] .

فالله تبارك وتعالى يجعل عيادة المريض عيادة له جل جلاله وأطعام الفقير وما فيه من تخفيف آلام الجوع وقسوة الحياة إنما ذلك كله لله رب العالمين وسوف

(١) متفق عليه .

يمنح الله تبارك وتعالى الأجر العظيم والثواب الكبير لكل من يسارك فى تخفيف آلام الناس وفك ضائقتهم ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى حاجة أخيه .

هذا هو توجيه الإسلام للإقتصاد : الإحسان إلى عباد الله وقضاء حوائجهم المادية والتيسير على معسرهم وتحقيق الخير والنفع للمجتمع الإسلامى كله فإن — على حد قول الرسول — (طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية) [١] .

وقول الرسول : [ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم) [٢] .

وقول الرسول : [ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأ كل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه) [٣] .

ومن إتباط الإقتصاد بالدين فإن الرقابة على ممارسة هذا النشاط الإقتصادى هى رقابة ذاتية فى المقام الأول — وهذه ميزة ثانية للإقتصاد الإسلامى — فبينما تكون رقابة النشاط الإقتصادى -فى الأنظمة الإقتصادية الماركسية وغيرها - موكولة إلى السلطة العامة تمارسها طبقاً للقانون وهى رقابة خارجة تقصر عن تحقيق أهدافها من الأخذ من القادر وإعطاء غير القادر ولذا فإننا فى ظل هذه النظم نجد المنحرفين بنشاطهم الإقتصادى والمتهربين من دفع الضرائب ومن إلتزاماتهم كلما غفلت الدولة عنهم أو عجزت عن ملاحقتهم ، أما الإقتصاد الإسلامى

---

(١) رواه مسلم عن جابر .
(٢) رواه الطبرانى والبزاز .
(٣) رواه البخارى .

فإنه يختلف عن ذلك تماماً حيث يوجد إلى جوار الرقابة الشرعية التى تمارسها السلطة العامة ـ رقابة أشد وأكثر فعالية هى رقابة الضمير المسلم القائمة على الإيمان بالله والحساب فى اليوم الآخر .

وهذا الضمير ـ بلا شك ـ هو نتاج التربية الإسلامية والمناخ الإسلامى والروح الإسلامية التى تعايش كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم فتسمع لهما وتتأثر بهما وتدور فى فلكهما ورحابهما وتحرص على الخضوع لتعاليمهما وتدرك بحق قول الله تعالى [وهو معكم أينما كنتم] وقوله جل جلاله [إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء] وقوله سبحانه وتعالى [يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور] وقول الرسول عليه السلام عندما سئل عن الإحسان [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] (١) .

وحين يحس المسلم بأنه إذا تمكن من الافلات من رقابة السلطة فإنه لن يستطيع الافلات من رقابة الله فإن ذلك فى حد ذاته فيه أكبر ضمان لسلامة السلوك الإجتماعى وعدم إنحراف النشاط الإقتصادى عن الهدف المنشود منه .

الملكية المزدوجة

من المعروف أن النظام الإقتصادى الماركسى يقوم أساساً على الملكية العامة ـ أى ملكية الجماعة التى تمثلها الدولة لوسائل الانتاج ولا يعترف بالملكية الفردية إلا استثناء وعلى خلاف هذا الأصل العام ففى ظل هذا الاقتصاد لا يسمح للفرد كقاعدة — أن يمتلك أى مال من أموال الانتاج ، وتصبح الدولة هى المالكة الوحيدة لكل أدوات الانتاج ولجميع المشروعات ومرافق الخدمات وهذا عكس الاقتصاد الرأسمالى الذى يقوم أساساً على الملكية الفردية فقط .

---

(١) رواه مسلم .

وكان لالغاء الملكية الخاصة فى النظام الاقتادى الماركسى آثار سيئة - لأن ذلك يتصادم مع فطرة الإنسان فى التملك والحب له - ولذا فقد جاءت النتائج مخيبة للآمال العراض الذى علقها الماركسيون على نظريتهم ، وضياع ذلك الفردوس الموعود الذى كانت تعدبه الشيوعية أبناءها .

لقد أثبتت الدوافع الفطرية دورها وتمرد الانسان على ذلك النظام الذى يناقض الفطرة ولا يشبعها وتحولت روسيا البلد المصدر للحبوب إلى بلد مستورد لها ، ورغم أن ستالين، أزهق تسعة ملايين نسمة فى سبيل إقامة (الكلخوزات) المزارع الجماعية ، فإن السلبية واللامبالاة - رغم القهر والضغط - كانت الشىء السائد حتى ضحى بخروشوف بسببه . وحل أو زاره مع أن الأسباب تعود إلى النظام أكثر مما تعود إلى الأشخاص [1] . وإزاء تدهور الانتاج كما ونوعا وإقتناع المسئولين عن هذا الاقتصاد بأن ذلك راجع - بصفة أساسية - إلى إلغاء الملكية الفردية بدأ بدوره الاعتراف بهذه الملكية .

أما الاقتصاد الإسلامى فإنه - منذ البداية - يقر الملكية الفردية ويقر كذلك الملكية الجماعية ويجعل لكل منهما مجالها الخاص الذى تعمل فيه ولا يعتبر ذلك استثناء أو علاجا مؤقتا اقتضته ضرورة معينه [2] . ذلك أن نازع الفطرة لدى الانسان يدفعه إلى التملك .

بيد أن هذا النازع فى إنطلاقه يكون مصدر قلق إجتماعى بل خطر كبير ومن هنا كان اعتراف الاسلام بالملكية العامة صمام أمن يكفكف اندفاع نزعة الانسان الفطرية من التملك هذا من ناحية

---

(١) ص ٤٩ الاسلام وبناء المجتمع د . أحمد العسال : دار القلم الكويت طبعة أولى .

(٢) النظرية الاقتصادية فى الاسلام ص ٧٧ د . أحمد النجار .

ومن ناحية أخرى إتاحة فرص كافية لخدمات متنوعة تقدم لجماهير المواطنين فى الصور التى تلائم البيئات والأجيال)(١) .

ورغم أن الاسلام أقر بالملكية الخاصة والعامة إلا أنه مع ذلك وضع لكل منهما قيوداً تكفل عدم الاضرار بحقوق الآخرين أو بالصالح العام على القاعدة الاسلامية الكبرى [لا ضرر ولا ضرار] ومن هنا كان تحريم الإسلام للربا وللغش والاحتكار وفى الوقت نفسه حثه على الصدقة والانفاق والتيسير على الفقراء بل وأوجب الزكاة ونظم التكافل الاجتماعى على اعتبار أن الجميع كما أرادهم الرسول بقوله : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٢) .

ومن يرجع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم يجد ذلك واضحاً جلياء يقول الحق جل جلاله [وأحل الله البيع وحرم الربا] ويقول : [ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل] .

ويقول الرسول [من غشنا فليس منا] ويقول: [المحتكر ملعون] ويقول الله حاثا على الانفاق وما إلى ذلك .

[والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم] ويقول : [وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء] (٣) .

---

(١) الاسلام وبناء المجتمع الفاضل د يوسف الشال ص٢٥٧ سلسلة البحوث الاسلامية العدد الستون .

(٢) رواه البخارى نقلا عن خلق المسلم للشيخ الغزالى ص ٢٠٧ ،

(٣) آل عمران : ١٣٣ — ١٣٤ .

المـال للجميع

والإسلام فى نظرته إلى المال ـ وهو عصب الحياة وأساس كل إقتصاد ـ تقوم على أنه لله تبارك تعالى، وإذا كان الناس جميعاً عباد الله ، وكانت الحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله . هى أيضاً لله كان من الضرورى أن يكون المال ـ وإن ربط باسم شخص معين ـ لجميع عباد الله يحافظ عليه الجميع وينتفع به الجميع ويعود خيره على الجميع ويسعد به الجميع وهذا ما أرشد الله العباد إليه [هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً] [١] ومن هنا أضاف القرآن الأموال إلى الجماعة وجعلها قواماً لمعاشهم [ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل] [٢] . [ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً] [٣] .

وتحقيقاً لإنتفاع الجميع بها وتطهيراً للنفوس من بواعث الأثرة فيها حارب الإسلام فى المالكين لها والقائمين عليها، خلق الشح الذى يمنع من البذل والإنفاق، كما حارب السفه الذى يودى بالمال فى غير وجوه النفع العام وإقامة المصالح ، فى الشح يقول الله سبحانه وتعالى: [ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] [٤] . وفى البخل وهو ليد الشح ويقول : [ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض] [٥] .

وقد أرشد الله تعالى إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجب وإقامة المصالح

---

(١) البقرة : ٢٩

(٢) البقرة : ١٨٨ .

(٣) النساء : ٥ .

(٤) التغابن : ١٦ .

(٥) آل عمران : ١٨٠ .

وتحقيق النفع - إلقاء بالنفس فى التهلكة « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »(١) . وكما وقف القرآن من الشح بالأموال هذا الموقف وقف أيضاً الموقف عينه من التبذير فيها وإضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة :

[إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً] (٢) .

بهذا يتميز الإقتصاد الإسلامى عن غيره بأنه وسيلة لخير الناس وسعادة الجميع وهذا مالم يصل إليه نظام إقتصادى آخر عرفه البشر قبل الإسلام أو بعده .

▲▲▲▲

---

(١) البقرة : ١٩٥ .
(٢) الإسراء : ٢٧ .

الإسلام والأسرة

وقفنا على نظام الأسرة فى الفكر الماركسى [1] والفلسفة التى تقوم عليها علاقة الرجل بالمرأة وهى العلاقة التى أفقدت المرأة - وهى أصل الأسرة وربة البيت - أعز ما خلقت له وهو الزوجة الكريمة والأمومة الحانية والطفولة الصالحة ، ولم تكن بدعا ؟ أليست جزءاً من إطار حضارى مادى مظلم ؟ وصدق الله العظيم إذ يقول [والذى خبث لايخرج إلا نكداً] .

ومن واجبا أن تقف على نظام الإسلام فى بناء هذه الأسرة حتى يتبين للجميع مدى أصالة هذا الدين فى تنظيم حياة الأفراد والمجتمعات ، ويظهر مقدار العناية التى شمل بها الإسلام الأسرة وحقيقة رعايته لها ، ويظهر واضحا مدى إهتمام هذا الدين بالجو الأسرى الذى ينشأ فيه الأفراد وهم الخلايا الطبيعية التى تشكل جسد كل مجتمع وسلامته مرهونة - دون شك - بسلامة خلاياه ، ولا نغالى إذا قلنا !

إن التاريخ البشرى كله لم يشهد دينا أرتقى بالأسرة إلى أسمى أوضاعها وأنبل صلاتها وأجمل علاقاتها - مثل دين الإسلام وذلك لإدراكه الواعى وتفهمه الكبير بدور الأسرة الخطير فى دنيا الناس ، فهى ركيزة المجتمع ودرعه الحافظ وحصنه ، المكين ، وهى أمل الأمة فى الشدائد وملاذها ، تمدها بالجندى المناضل والمعلم الأمين والعامل المخلص .

والأسرة هى - كما يقول العقاد - الأمة الصغيرة ، ومنها تعلم النوع الإنسانى أفضل أخلاقه الإجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه أجمل أخلاقه

---

(١) أنظر صـ ٩٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

وأنفعها ، فلولا الأسرة لم تحفظ صناعة نافعة ثوارثها الأبناء عن الآباء ثم توارثها أبناء الأمة جمعاء .

ولو الأسرة لا ستجاب لدعوة الهدم والتخريب كل من لا خلاق له من حثالات الخلق ونفاياتهم في كل جماعة بشرية ، فالأسرة هي التي تمسك اليوم مابناه النوع الإنساني في ماضيه وهي التي تتولى به غداً إلى أعقابه وزراريه حقبه بعد حقبة وجيلا بعد جيل ، لا أمة حيث لا أسرة بل لا آدمية حيث لا أسرة[1] فن الأسرة تنعكس على المجتمع أخلاقها فتؤثر فيه سلبا أو إيجابا ومن هنا أهتم الإسلام بهاوكان لها على-حدتعبير أستاذنا الدكتورعبدالرحمن بيصار - فيما أنزل الله حظ وآخر تنظيما وتربية وتوجيها في تكامل يصمد عليه بناء المجتمع وتستقر عليه الحياة .

فقد نظم الإسلام العلاقات بين أفرادهاتنظيما يكفل لها الترابطوالتناسق في نطاق الطبيعية البشرية ، لايصادمها ولا يعاندها ، وإنما يلبي حاجاتها ويعالج ماقد يطرأ عليها من أعراض مرضيةعلاجا تذهب بهتلك الأعراض .

والأسرة أبوة وأمومة وأخوة ورحم ، تقوم في نظام الإسلام على أوثق العلاقات وأقواها ، ولدى النظر الرشيد يستبين ذلك ويتضح جليا .

وحينما لا تتضح الرؤية تحت التأثر بموروثات الهوى والغرض فإن مايرى حينئذ ليس هو نظام الإسلام وإنما هو إنعكاسات الهو والغرض التي يضل عليها المدلجون حين لا يتخذون من وحى الله هاد يامرشداً[2] .

---

(١) صـ ١٦٤ وما بعدها من حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد .

(٢) صـ ٦ مقدمة لكتاب الأسرة والإسلام د . محمود بن الشريف : مطبوعات بجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢ م

الاسرة أساس المجتمع

لقد جعل الإسلام عماد الأسرة - ركيزة المجتمع - الزواج الذى ينشأ عن عقد تباركه يد الله تعالى وتربط به بين الزوج والزوجة وتزكيه بروابط المحبة والمودة والتعاون والتعاطف والمعاشره الحسنة وتدعم الاصرة بينهما بأزاهير تنشر أريج الطفولة فى أرجاء المنزل فتملأ قلوب الآباء بشرا وتفاؤلا وحبا ومودة .

ويأخذ الإسلام طريقه فى تكوين الأسرة فيبدأ من حيث ينبغى البدء ويمهد القرآن الكريم لذلك فيقول :

[ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون][1] .

فيصور العلاقة الزوجية تصويراً يؤكد ما يجب أن تقوم عليه هذه العلاقة من سكن النفس وأنس الروح وأطمئنان الخاطر وراحة القلب وإستقرار الحياة ، والزوجة - كما يفهم من الآية الكريمة - نعمة الرجل يكمل بها نقصه ويحمل بها حياته ثم هى إلى ذلك منبت أولاده وأحفاده يرى فيهم نماء فرعه وبقاء نوعه وإمتداد وجوده ولذلك جاء إهتمام الإسلام بهذه الزوجة وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على أختيارها من بيئة طيبة ومن أسرة متدينة : [فاظفر بذات الدين تربت يداك] [الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة][2] . ولا شك أن المرأة الصالحة المتدينة هى التى تعرف حق زوجها عليها وحق أولادها وحق جيرانها وحق وطنها وحق الإنسانيه جمعاء.

---

(١) الروم : ٢١ .
(٢) رواه مسلم.

إنها الزوجة التى إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك ونبى الإسلام وهو يحث على أختيار الزوجة المتدينه فإنه – مع هذا – لا ينكر الجمال كدافع لإختيار شريكة الحياة ولا ينكر المال لأنه خير وقد تتعلق به بعض النفوس التى تعشق بريقه الوهاج ، ولا ينكر الحسب والنسب لأنهما شرف وعزة وقد يتطلع إليهما بعض الرجال .

لا ينكر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا كله فقد تزوج صلى الله عليه وسلم من سيدة جمعت المال والجمال والحسب والنسب وهى السيدة خديجة – أم المؤمنين – رضى الله عنها ، ولكن زواجه منها لم يكن لرغبة منه فى شىء من ذلك فقد كان عليه السلام أكرم وأعظم من كل هذا ، إنما ينكر نبى الإسلام أن تكون هذه المميزات غاية الغايات من الزواج ، بل إنه يهدد قيمتها إذا جارت على ما يليق للزوج من طاعة على الزوجة وكرمة فى الأسرة وأحترام بين الناس وأضاعة لهيبته وتحطيم لعزته ، فقد يضنيه جمال الزوجة الطاغى فيبعث فى نفسه القلق ويزرع فى صدره الوساوس والشكوك ، وقد تشهر المرأة سلاح المال فى وجه زوجها وتمن عليه فيتضاءل أمامها ، وقد تشمخ عليه بمالها من حسب ومالأهلها من جاه فلا يزداد بحسبها ونسبها إلا ضعة وهوانا ومن ثم كان المقياس الصحيح لاختيار رفيقة الحياة وشريكة العمر هو ما أرشد به رسول الإسلام فى أختيار الزوجة الصالحة ومن هنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم :

[لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن إن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرساء سوداء ذات دين أفضل] .

هذا هو توجيه الرسول الكريم فى أختيار الزوجة التى تصلح لبناء الأسرة وتلك هى الميزة الكبرى التى تفضل بها المرأة غيرها من النساء ، وهى أن

تكون ذا دين وعلى صلة بالله ومعرفة به فهذا هو الخير الذي لا يشوبه شر وهو الوسيلة الفضلى لبناء الأسرة على أساس قوى متين وصدق الشاعر إذ يقول

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعب طيب الأعراق

وإذا كان نبي الإسلام يحث أتباعه على اختيار ربة الأسرة من عنصر طيب متدين وعلى خلق قويم فإنه يقف الموقف نفسه مع الرجل ويزكي الزوج المتدين فيقول :

[إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه . إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير] ذلكم أن الأخلاق الفاضلة - وأساسها الدين - فيها صلاح كل أمر وأساس كل صلاح وأكمل المؤمنين إيمان أحسنهم خلقا وأنفعهم لأهله ومجتمعه .

الأبناء والجو العام للأسرة

في هذا الجو العام الذي تعيش الأسرة في ظلاله - جو التدين والأخلاق والفضائل — ينشأ الأبناء نشأة كريمة أثر رعاية مخلصة وعناية صادقة ومحبة حانية .

فتستقبل الأسرة أبناءها بالتكبير في آذانهم واختيار أحسن الأسماء لهم فإن الاسم له على صاحبه أثر وتأثير .

وتكون التربية الهادفة والتوجيه الكريم على أساس : [كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته][1] .

فلا يسمع الطفل - والأمر كذلك - إلا محاسن القول وهو يتردد في جنبات البيت وأرجاء المجتمع .

(١) متفق عليه .

وهل هناك أحسن من آيات الله وهى تتلى صباح مساء، ومن سنة رسول الله وهى تتردد فى الغداة والعشى [كنا نعلم أولادنا مغازى رسول الله كما نعلمهم السورة من القرآن] .

ولا يرى الطفل إلا صالح العمل . وهل هناك خير من العمل فى طاعة الله ونشر دينه وخدمة الناس وتقديم الخير لهم والعمل الدائب على تقويم المجتمع وإصلاحه ونشر الفضائل فيه .

ولذا كان الطفل ـ وقد نشأ فى هذا الجو الكريم ـ يقول لأبيه ـ وقد خرج يبحث عن رزقه ـ يا أبتاه أتق الله فينا ولا تأتنا بطعام من حرام فإننا نستطيع أن نصبر على الجوع ولكن لا نستطيع أن نصبر على نار جهنم .

ولا عجب فى ذلك فإن الأسرة المؤمنة تحرص كل الحرص على تنمية الشعور الدينى لأبنائها وتربية ضمائرهم ووجدانهم وتصفية نفوسهم وتطهير قلوبهم وتوجيههم إلى صراط الله المستقيم ودفعهم إلى الإيجابية فى الحياة وتحقيق ذاتيتهم ، فينشأ أحدهم مع الله تعالى عبداً طائعا ومع الناس أخا وفيا ومع المجتمع عاملا منتجا ومع الإنسانية خادما مخلصا يفتخر بدينه ويعتز بإسلامه [ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين] (١)
فأين هذا كله من تربية الماركسية لأبنائها وقد قتلت كل فضيلة فى الأسرة وفرقت بينها وبين أبنائها ونشرت فى ربوع المجتمع دعوات الإلحاد والكفر ونسفت كل دعوة إلى الروحانية وعملت على نشر الفوضى والمادية والفسق والفجور ؟ ؟

هذا وبالله التوفيق

---

(١) فصلت : ٣٣ .

الفهرس